حكايات من
التراث العماني
(1)

القافر

د. خالد بن سليمان الكندي

إهـــــــــداء ٢٠١٤

الاستاذ الدكتور خالد عزب

جمهورية مصر العربية

حكايات من التراث العماني

(1)



د.خالد بن سليمان الكندي

القافــــر

المؤلف: د. خالد بن سليمان الكندي
الطبعة الأولى: 2013 (مسقط)

الناشر:

بيت الغشام للنشر والترجمة
مؤسسة التكوين للخدمات التعليمية والتطوير
(سلطنة عُمان - مسقط)
للتواصل:
alghshamoman@gmail.com
هاتف: 99260386 - 24398889
ص.ب: 745 الرمز البريدي: 320
www.altakween.com

بالتعاون مع:
تصميم الغلاف:
أحلام بنت محمد الرحبي

رقم الإيداع 207 / 2013

شهقة..

ذهبت أصوات الناس إلى مراقدها، وحلت محلها الْجَداجِد وقد ملأت الليل بصريرها، وانقلب المكان عَتَمَة..

لم يذر الصمت شبرا في البلد؛ فقد استحال السوق (أكثر الأماكن ضجيجا) -وقد كان يعج في النهار صخبا- إلى سكون أشد من سكون القبور نفسها!..

كان سوق (نَخَل) في تصميمه كحرف (T)؛ لكن أطوال اتجاهاته الثلاثة المتقاطعة شبه متساوية..

وله ثلاث بوابات كبيرة، وباب صغير.. وجميعها يوصد بعد المغرب، ويبعد كل منها عن أقرب الحارات حول السوق بنحو ثلاثمائة متر..

أُولى هذه البوابات: البوابة العلوية في الجنوب، وثانيتها: البوابة السفلية -الرئيسية- في الشمال، وبين البوابة الجنوبية والبوابة الشمالية الخط المستقيم الذي يمثل مظلة الحرف (T). وأما البوابة الثالثة المنفردة التي تمثل قاعدة الحرف (T) فهي البوابة الشرقية المقابلة لسوق السمك، وأما الباب الصغير فهو في غرب السوق لكنه قريب جدا من البوابة الجنوبية..

ظل وقود السراج -المعلق على عمود حديد بجوار الباب الرئيسي- يحترق طوال الليل..

وفوق كرسيين أمام البوابة الرئيسية قعد اثنان من عسكر الوالي..

كانا يُمْضِيان نوبتهما بالحكايات المؤنسةَ تارة، وبتناول الرطب والقهوة والماء تارة أخرى..

وبين الحين والآخر يقوم أحدهما بدورة حول السوق من الخارج لتمشيط المكان..

قررا للمرة الثانية أن يقتطعا وقتا لاحتساء القهوة وأكل الرطب ولم ينتبها للعيون التي قدمت من محلة العتيك شرق السوق وتوجهت إلى البوابة الشرقية بعد أن تأكدت أن الحارسين مشغولان بالشرب والأكل..

تعاون اللصوص الثلاثة في رفع زميلهم إلى أعلى؛ حتى استطاعت يداه أن تستندا على الأخشاب العلوية البارزة للبوابة الشرقية، فصعد إلى سطح السوق وحول رقبته طية حبل، وفي جيبه مصباح يدوي..

ألقى الصاعد منهم الحبل ليعين الثاني على الصعود إليه، فلما استقر الثاني فوق السطح اتجه إلى سطح البوابة الجنوبية وهو يحمل مصباحا يدويا آخر..

وأما الاثنان الآخران اللذان كانا أسفل البوابة الشرقية فقد تحرك أحدهما إلى البوابة الجنوبية، وبقي الآخر مكانه..

كانت كل بوابة من بوابات السوق تحمل مرتاجا يتصل بمقبض مجوف، وكانت تحت المرتاج حلقة نحيفة مثبتة في الباب ليدخل المقبض المجوف فيها، فإذا ما أُدْخِلَ مقبض المرتاج في حلقة الباب جيء بالقفل لإدخال حلقته في حلقة الباب، فإذا ما أُغْلِقَ القفل حُبِسَ المرتاج عن الحركة، فامتنع فتح مصراعي الباب اللذين يربط بينهما المرتاج.

كانت حلقة القفل واسعة وثخينة على خلاف حلقة الباب التي كانت واسعة لكنها نحيفة؛ وكان ضرب حلقة القفل بفأس أو شيء حاد يستغرق وقتا طويلا حتى تنكسر، ثم إن الضرب المتكرر يَلْفِتُ انتباه الحارسين..

لقد خطط اللصوص الأربعة لفتح البوابتين الشرقية والجنوبية، فوجدوا أن كسر حلقة الباب أخف وطءاً من كسر حلقة القفل، ولأجل ذلك تزود المكلفان منهم بِقَضِيبَيْنِ حَدِيدِيَّيْنِ طُولُ كلٍّ منهما متر، فأدخل كل منهما القضيب الذي بيده في تجويف حلقة القفل، حتى إذا صار التجويف متوسِّطاً طُولَ القضيب بدآ بإدارة القضيب بهدوء، وبدورانه كان القفل يدور أيضا فيسبب انعكاف حلقة الباب،

حتى إذا ما أدارا الحديدة عدة دورات انقطعت حلقة الباب..

كان استعمال القضيب الحديدي لمحة من ذكاء مُخَطِّطِ العملية؛ إذ إن تحريك أي شيء ثقيل يكون أيسر جُهْدا وأقل شدةً كلما كانت نقطة التحريك أبعد عن مركز الثِّقَلِ، وكانت هذه العملية التي أجراها اللصوص- هادئة حتى هذه اللحظة؛ لأن انقطاع الحلقتين لم يخلف صوتا يُذكر سوى تَكّة لا تكاد تُسْمَع، وكان يمكن للصوص أن يبدأوا بفتح البوابتين وسرقة ما يريدون من محلات السوق..

لكن العجيب أنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك..

بل فعلوا آخر ما يمكن أن يتصوره العقل!..

إذ لم تلبث حلقة البوابة الشرقية منقطعة حتى وجّه الواقف على سطح البوابة الشرقية إلى الواقف على سطح البوابة الجنوبية إشارة ضوئية -بالمصباح اليدوي- متفقا عليها تعني أن البوابة الشرقية صارت محررة، وانتظر ثواني حتى رد عليه زميله المتلقي للإشارة بنفس الإشارة مما يعني أن البوابة الجنوبية صارت محررة أيضا، وفي الحال وجه القابضان بالمصباحين إشارة ذات مغزى في توقيت واحد إلى صاحبيهما اللذين فكّا الأقفال..

وفي نَفَسٍ واحدٍ..

وبكل استهتار..

شَهِقَ كل واحد من الرجلين اللذين حَرّرا البوابتين شهقة ليست عالية جدا؛ لكنها كانت كفيلة بأن تصل إلى آذان الحارسين في البوابة الرئيسية، فتَخْرِقَ صمت الليل الكبير، وتُشْعِلَ الموقف كله دَفْعةً واحدة!!..

نهاية المرسى..

بالقرب من شاطئ (شِنَاص) رسا مركب خُصِّص للغوص واستخراج اللؤلؤ..

وأطل منه رجل اقترب من مرحلة الكهولة، وقد صَبَغَتْ وجْهَهُ الأبيضَ أُدْمَةُ الساحل، وفَرَشَتْ أنفَه الأقنف لَطَماتُ أمواجِ البحرِ..

كان غريبا وَسْطَ كوكبةٍ من البحّارة امتازَتْ بشرتُهم بالسُّمْرَةِ، وبدا جسده نحيلا على الرغم من إسطوانية وجهه، وانتفاخ وجنتيه، ورَبْعَةِ قامتِه..

وتكدس الشعر الكثيف في كل بُوصة من رأسه؛ في صورة لا تتجانس مع عادة الغواصين وقد اعتادوا على حلق معظم شُعُور رؤوسهم..

هبط من المركب مع بعض زملائه الغوّاصين إلى قارب صغير يوصلهم إلى الساحل على صورة دَفَعات..

وكانت آخر دَفْعَة تلك التي يركبها (النّوْخَذَهْ) مع البحّارة..

كان جميع من في المركب -عدا (النوخذهْ)- يبدو عليهم البؤس، وتحمل ملامحهم الفقر والشقاء..

لكن (سلام) -الرجل الكثيف الشعر- كان أكثرهم يأسا وبؤسا..

إنه فارق قريته (نخل) -التي لم يجد له فيها سبيلا للرزق- منذ اثني عشر عاما، واتجه إلى (شناص) طمعا في اللؤلؤ الذي شجّعه على العمل في استخراجه تاجر لقيه ذات يوم في سوق (مطرح)، وتوسط له عند (النوخذه) ليعلّمه الغوص ويَضُمّه إلى طاقمه..

كان (سلام) حينها شابا طموحا لم يتجاوز السادسة عشرة، فطمع في جنة اللؤلؤ!..

لكنه بعد سنوات طويلة من العمل أدرك أنه -وسائر الغواصين- لا يكادون

يحصلون من نسبة أرباح بيع اللؤلؤ إلا على ما يكفيهم لقوت يومهم..

ذلك لأن استخراج اللؤلؤ عمل شاق جدا، والحصول عليه نادر..

لكن ما عساه أن يفعل؟!.. فالفقر في كل مكان!.. وعودته إلى بلاده (نخل) لا تزيده إلا فقرا وخدمة لأصحاب المزارع!!..

هبط (سلام) من القارب مع سائر الراكبين معه من زملائه واحدا واحدا..

كانت السماء قد استحالت ظلاما..

وعلى غير عادته نسي أن يودِّع زملاءه، فذهب على الفور إلى العريش الذي يسكنه في ساحل (شناص)، فاستحمم بماء عذب وغير ملابسه، ثم استلقى ليأخذ قسط راحة على فراشه المصنوع من ألياف أشجار النارجيل (التي تكثر في الساحل)، المكسو بالقماش..

شَخَص ببصره إلى سقف العريش..

أخذ يسترجع ذكريات طفولته المريرة..

ذكريات والده البائس وقد كان يقطّع السمك في سوق (نخل)، وينظّفه لمن يملك القدرة على شرائه؛ فيسرق منه (سلام) أثناء عمله بعض قطع السمك ليظفر بها ويشويها هو وبعض المشاكسين من رفقاء صِباه..

وتَذَكّر أمه التي بلغه خبر وفاتها، تذكر أيامها بحرقة حين كانت تبحث طيلة الصباح عن الثمار المتساقطة في الأرض من المزارع، حتى إذا ما جمعت كمية جيدة منها باعتها لتساعد زوجها في شراء لقمة العيش لأبنائهما..

وتذكر أخته الكبيرة التي تزوجت من ابن عمه العامل مزايدا في سوق (نخل).. استعاد (سلام) ذكريات دفاعها عنه حين كان بعض البيادير يأتون إلى أبيه ليشتكوا من (سلام) متهمين إياه باقتحام مزارع أغنيائهم واختطاف ألذ الثمار: الأمبا والموز والتين..

لم يستطع أن يتمالك نفسه وقد اشتاقت للقاء أحبابها وأهلها، فتحدرت من عينيه دمعتان حارّتان سرعان ما جَرَتا فوق خَدَّيْه..

- ولكن.. ماذا أقول لأهلي بعد عودتي؟!.. أأقول لهم إني كنت فتى خائبا فلم

أجمع لكم أي مال طوال اثنتي عشرة سنةً؟!..

حدثته نفسه بهذه العبارات، فصمت لحظات..

ثم عاد إلى ذكرياته ليتذكر أخاه الأصغر القريب من سنه الذي لم يكن (سلام) يجد وقتا يلهو معه فيه إلا ما بين المغرب والعشاء؛ إذ يبسط الليل رداءه الأسود، فلا يرى الأخوان مكانا مناسبا للعب إلا قرب منزل أبيهم المتواضع؛ حيث كان أبوهما يعلق قنديلا يتدلى من خشبة من أخشاب (الكَنْدَل) معلقة بين نخلتين..

وقف شريط ذكرياته عند القنديل الذي ظل يتأمله في ذهنه..

حينئذ وجد عقله رابطا يربط بين القنديل وشيءٍ ثمين يحتفظ به في (مَنْدُوس) ملابسه..

لقد أهداه إليه رُبّان إنجليزي قبل شهر؛ بعد أن ساعده (سلام) في تزويد سفينته بما تحتاجه من مؤونة من (شناص) قبل أن تتابع مسيرها إلى دُبَي..

كان ذلك الشيء الثمين في ذلك الحين يُعَد إحدى عجائب الدنيا التي قلما يعرفها أبناء الخليج، ولاسيما أولئك الذين يسكنون بعيدا عن السواحل الْمُعتادِ أهلُها على الاتصال بحضارات الغرب، وتَعَرُّف الأدوات الحديثة والمخترعات التي يجلبها البحارة الأوروبيون..

تناول ذلك الشيء الثمين، وأخذ يُرَكِّب قِطَعَه كما علمه الربان الإنجليزي، ثم ضغط على أحد جوانبه..

برقت عيناه حين أضاء سريعا..

أخذ بصره يتبع دائرة الشعاع وهي تتحرك فوق سقف العريش..

وحدثته نفسه بأن أهل (نخل) لا يعرفون شيئا عن هذا الشيء البديع..

أخذت الوساوسُ الخبيثةُ تلعبُ بعقله..

ثم لمعت في ذهنه فكرة عجيبة..

بل خاطرة مجنونة!..

خاطرة ستقلب موازين مستقبله كلها!..

ستقلبها رأسا على عقب!!..

الشبح..

هَجَعَتِ الأجَساد في منطقة (العلاية)، وصعدت أرواحها إلى أجل مسمى، وغاب عن القمرِ شَطْرُه، فبدا بصيصه ضعيفا في الليل المُدْلَهِم..

كان الزمن أوائل العقد الثاني من القرن العشرين، وكان الموسم صيفا، والشهر شهر يونيو..

خلا المكان من أي صوت؛ إلا من نقيق الضفادع، والصرصرة المتقطعة للحشرات..

لكن فجأة..

ظهر ذانك الفارسان..

كانا يختالان بفرس وحصان رويدا رويدا؛ كما لو كانا في نزهة لا تتناسب وذلك الوقت الذي تجاوز منتصف الليل..

كان أحدهما على فرس سوداء، وكان الآخر على حصان أحمر..

قد قضَيَا ليلهما وهما يصولان وسط مزارع النخيل في هدوء عجيب دون أدنى جَزَع!..

وتعمّدا أن يجيلا نظريهما طويلا حين يمران بوقف من أوقاف المساجد؛ ليتفحصا نَخِيله واحدة واحدة..

مرّا بين مزرعتين في الجنوب الغربي من الوادي، وواصلا السير حتى صارا على بعد مائتي متر من وَقْف مسجد (الْمُكَبَّر)..

كان الوقف صغيرا لا يتجاوز عشرين نخلة في رقعة زراعية بجوار المسجد تشبه جناح الفراشة..

خُيِّل إليهما منذ أول وَهْلَة أن ثمّة جَلَبَةً حول المكان، فاستوقف صاحب الحصان صاحبه لئلا يَلْفِت وقع حوافر الفرسين أحدا قد يكون موجودا في المكان، ثم أشار إلى صاحبه بالصمت والتراجع بالفرسين..

تراجعا بهدوء، وعادا من الطريق التي أقبلا منها، ثم ربطا الفرسين بإحدى النخيل البعيدة عن الوقف..

عادا مُتَرَجِّلَيْنِ إلى (وقف المكبر) في حذر؛ ووقفا هذه المرة عند طرفه..

أدارا البصر فيما حولهما، فلم يَرَيا شيئا يثير فضولهم..

ثم انتفض عقلاهما فجأة حين سَقَطَتْ رَطْبَة من إحدى النخيل؛ إذ لم يكن في السماء أدنى هُبُوب للهواء..

لكن ما المانع أن تسقط تمرة إذا كان أجلها قد بلغ بعد أن قضمتها الديدان ونخرتها الحشرات؟!..

هكذا تبادر السؤال بالبديهة إلى ذهن صاحب الحصان..

لكن هذه البديهة لم تلبث أن تستكن حتى هَوَتْ تمرات أخرى بغزارة قبل أن يخطو الرجلان خطوة أخرى..

رفع صاحب الحصان رأسه محدقا في ثلاث نخلات يشك في قدوم الصوت منها، وعند النخلة الثانية -التي هي أقرب نخلة إلى المسجد- استوقف بصره شبحٌ مشغول بجني الرطب..

عندئذ هَمَس صاحب الحصان في أذن صاحبه، فدار صاحب الحصان حول المال من طريق الوادي حتى صار مختبئا خلف المسجد؛ على حين اختار صاحب الفرس أبْعَدَ نخلة عن الشبح؛ ليختبئ خلفها..

تأكد صاحب الفرس أنه مختفٍ في موضع يصعب على الشبح رؤيته..

ومن موقعه صرخ:

- واق.. واق.. واااق..

ارتبك الشبح، وتوقف عن جنيه؛ ليتلفت إلى مصدر الصوت.. فلم يرَ شيئا، وجال في خاطره أنه صوت طائر الشِقْراق.. فعاد إلى مِهْنَتِه!..

- ووح.. ووح... وووح..

تسلل القلق من جديد إلى الشبح وهو يستمع إلى هذا الصوت وقد جاء من المصدر السابق، وفحص المكان تحته ثانية، فلم ير شيئا..

- هل يعقل أن يكون هذا صوت كلب؟!..

أمعن في التفكير؛ لكنه قرر أخيرا أن يكمل ما بدأه ما لم يظهر له أمر اضطراري؛ إذ ليس من المعقول بعد كل هذا الجهد في صعود النخلة في هذا الظلام الحالك أن يتنازل عن سرقة كل رُطَبِها..

- هاه هاه هاه.. واه واه واه.. وُووه..

غضب الشبح هذه المرة إذ تبين له أن أحدا يعبث به دون أن يَمْثُلَ أمامه، فقال:

- افعلي ما بدا لكِ يا أيتها (الزَقّ)!.. أنا انتهيت، وسأنزل في الحال.. وأنتِ اجلسي مكانَكِ لتَبْرُكِي على بَيْضِكِ!..

مكث الشبح -ولم يكن سوى امرأة كَهْلَةٍ في أول الثلاثينيات من عمرها- لحظات قبل أن تُنْزِل (المِخْرَف) بالحبل إلى الأرض، وقد حصدت رطبا كثيرا..

ثم نزلت هي بـ(الصَّوْعِ) إلى أسفل النخل..

طوت الحبل، ووضعت المخرف فوق رأسها بمهارة جعلت المخرف يتوازن فوق رأسها، فلم تحتج إلى أن تمسكه بيدها..

استدارت وخطت أولى خطواتها متوجهة إلى مأواها على الطريق التي تتصل بالمزارع خلف المسجد؛ وفي يدها اليسرى (الصوع)..

وقبل أن تخطو خطوتها الثالثة خرج إليها صاحب الفرس وهو يقول:

- إلى أين أيتها اللصة؟!..

تمالكت المرأة نفسها في البداية وهي تلتفت خلفها وتقول بجسارة:

- أنا لست لصة!.. وأنت ما لك شأن فِيَّ!..

- أما تعرفين من أنا؟!

قالها صاحب الفارس متعجبا، فردت عليه متهكمة وهي تتابع مسيرها لتبتعد عنه:

- ومَنْ تَكُون؟.. (سيف السَّوَد).. أم (سَالم الحص)؟!..

ضحك ضحكة شامتة قبل أن يجيبها:

- لا أنا أخوهم: (خَلَف العصّ)!..

وفجأة رأت أمامها شبحا آخر، وهو يقول:

- قفي مكانك وإلا ضربتُك بسوطي هذا!..

نطق بالعبارة وهو يرفع سوطه الذي اعتاد أن يحمله معه في تجواله، وشاهد صاحبه وهو يقترب خلف المرأة..

توقفت المرأة حينما رأت أنهما يطوقان طريقها؛ لكنها صرخت حانقة في وجه صاحب السوط:

- لماذا تقطعان علي الطريق؟!.. اتركاني وشأني!..

- وكيف نتركك وأنت تسرقين؟!..

- من قال إني سارقة؟!.. هذا مال والدي..

- وهل يجني المرء مال والده في منتصف الليل؟!..

تلكأت المرأة في الإجابة إذ أدركت أن أمرها مفضوح، لكنها تمادت في عنادها قائلة:

- هذا مال المسلمين جميعا، وهو من حقنا نحن الفقراء..

- إذن دعينا نرفع أمرك للشيخ الوالي حتى يعطيك حقك!..

جاءتها العبارة الأخيرة في نبرة حادة من العسكري الذي كان خلفها، فالتفتت إليه متوسلة:

- لا أرجوك.. إن الوالي شديد البأس، ولن يسامحني إن علم بفعلتي..

- إن الوالي لا يحتاج إلى من يخبره أحد أيتها اللصة؛ لأنه موجود بيننا..

رد عليها صاحب الفرس، فأخذت تقلب وجهها بين الرجلين وهي لا تزال تحمل الرطب فوق رأسها، وقالت لصاحب الفرس مشيرة إلى صاحب السوط:

- هل تعني أن هذا.. هو.. الشيخ (محمد)..

- نعم أنا هو..

نطق صاحب السوط بالعبارة في كبرياء، فخارت قواها، وجَثَتْ على الأرض وهي تقول متوسلة:

- الشيمة.. الشيمة.. سامحني شيخي..

- من أنتِ أولا؟..

- أنا ابنتُك (شَنُّوه)!..

- هيييه.. أنت (شنّة) بنت الراعي!

- نعم شيخي.. أنا هي بعينها!

- اسمعي..

قالها وهو يشير إليها بسبابته، فردت خانعة:

- أمرك شيخي..

- غدا أريدك في حصن (نخل) قبل الضحى..ولا تأتي بأحد من أهلك معك.. تعالي وحدك.. أتفهمين؟!..

- نعم أفهم.. ولكن لماذا شيخي؟..

- اسمعي كلامي فقط، ولا تسألي!..

نطق بالعبارة في غلظة، فارتعدت فرائصها وهي تجيبه:

- حاضرة شيخي..

- والآن هاتِ هذا المخرف والصوع، واذهبي إلى بيتك..

- إن شاء الله.. خذ شيخي..

سلمته ما أراد، وانطلقت تعدو إلى بيتها بكل ما بقي لها من طاقة، والهلع يملأ كيانها..

عودة المْشوق..

في محلة (القبيل) في (عِلايَة نخل)..

وبعد صلاة العصر..

تجمّعت أسرة (سلام) حوله، وقد امتلأت قلوبهم سعادة، وارتسمت على وجوههم ألوان البهجة..

الأب والأخت والأخ الأصغر، كلهم التفوا حوله لتحتضنه شغافهم، وتمتلئ عيونهم ببشرى قدومه..

وسمع الأصدقاء القدامى بعودة صديقهم أيضا، فجاؤوا يهرعون إليه، وانضموا إلى المتشوقين لرؤية وجهه الباسم مرة أخرى؛ بعد ما أحدثه الزمان فيه خلال اثني عشر عاما..

أخذ الجميع يتناوبون سؤاله عن حاله، وفتحوا آذانهم ليتعرّفوا تجربته في السفر..

فشرع يحكي لهم وهم منصتون..

أعجبوا بشجاعته في الغوص..

وبهرتهم حكاياته عن الأعماق..

وبدأت الشمس تسحب آخر خيوطها البرتقالية..

وطفق الظلام يبسط رداءه القاتم..

لكن (سلام) ظل يحكي لهم بطولاته في المحيطات؛ كما لو كان سندباد زمانه..

ثم حضر العشاء..

وأكل الجميع..
ولا يزال (سلام) يصول ويجول في أساطير البحار..
ليسحرهم بالحديث عن الأقطار التي قطعها..
ووحوش الأعماق التي واجهها..
وغرائب البشر الذين لقيهم..
ثم..
- ألم تُحْضِر لنا شيئا من تلك الأعاجيب التي لقيتها؟..
قطع عليه حكاياته سؤال بريء من أخيه الذي يصغره بسنتين لكنه يشبهه كثيرا في طوله وبنيته وقسمات وجهه، وقد بدا مثله شابا يافعا بعد تلك الغيبة..
كان هذا السؤال محرجا..
لأنه -بكل يسر- سيكشف زيف تلك الأراجيف الطويلة التي ملأ بها آذان مستمعيه ولاسيما أسرته..
فبِمَ عساه أن يجيب؟..
أيقول لهم إنه رجع بعد اثني عشر عاما بِخُفَّيْ حنين!..
أم يقول إنه ابتنى له قصرا في (شناص)؛ لكن طوفانا حل به ذات مساء فجعله قاعا صفصفا؟..
كان السؤال كالقشة التي ستقصم ظهر البعير..
لو..
لو أن المسؤول غير (سلام)..
فـ(سلام)-وقد أبدع في ابتكار أساطيره- ليس بالرجل الهَيِّن الذي تقلقه مثل هذه الأسئلة..
لقد أعد نفسه للإجابة على جميع الأسئلة التي يتوقعها منذ أن بدأ يجهز نفسه للعودة إلى ذويه؛ لكي تكون قصته محبوكة..

- سأريكم شيئا من عجائب البحر..

نظر بعضهم إلى بعض في فضول، فقال أحدهم متعجلا:

- ما هو ذا الشيء؟..

- أحضري لي كيس الجلد يا فاطمة..

قالها (سلام) وهو يشير لأخته إلى الكيس الموضوع فوق رَوْزَنَة المجلس الذي اجتمعوا فيه..

- أطفئ السراج يا (كامل)..

وجّه (سلام) أمره إلى أخيه بعد أن تناول الكيس من أخته، فهب أخوه وأطفأ السراج دون أن يعلم جدوى ما يفعله..

لم يفهم أي من المجتمعين حوله ما سر كل هذه الترتيبات؛ لكن فضولهم دفعهم حوله ليحدقوا فيما يحويه الكيس..

- ها هي!..

نطق (سلام) العبارة بحماس كما لو كان قد ظفر بشيء ثمين في الكيس، ويده لا تزال مختبئة داخله تمسك بالشيء..

- ما هي هذه التي تعنيها؟

سأله أحد الحاضرين وقد أخفى الظلام ملامح الجميع..

- إنها لؤلؤة نادرة!..

- لؤلؤة نادرة!!..

صرخ الجميع بالعبارة في انبهار كبير..

- ابتعدوا عني مسافة ثلاثة أذرع على الأقل قبل أن أُخْرِج اللؤلؤة..

لم يدركوا لماذا يأمرهم بالابتعاد وهم متشوقون لرؤية اللؤلؤة.. فتابع قائلا:

- إن هذه اللؤلؤة يشع بريقها بقوة، فتصدر خيطا من الشعاع مضرا للعينين، وقد أصاب شعاعها أحد أصدقائي في (شناص) فأعْمَى عينَيْه..

ارتسم القلق والفضول معا في وجوههم جميعا، فلم يملكوا إلا أن يتراجعوا..

- هل الجميع بعيد عني الآن؟..

- نعم..لكن.. ألا تخشى على نفسك أنت أيضا يا (سلام)؟!..

كان من الممكن أن يكون سؤال أخته محرجا هذه المرة أيضا؛ لولا أن (سلام) داراه بقوله:

- لا تقلقي عليّ.. أنا سأغمض عينيّ كليهما، ولكن أبقُوا أنتم أعينكم مفتوحة لتروا الشعاع بأنفسكم، ولا يصيبكم مكروه بإذن الله ما دمتم مبتعدين كل هذه المسافة..

خضع الجميع لحكمة تدبيره، وتطلعت أبصارهم لرؤية مشهد الشعاع العجيب..

لم يستطيعوا أن يروا ما كان يفعله (سلام) باللؤلؤة داخل الكيس في حلك الليل؛ لكنهم استطاعوا أن يسمعوا صوت أوراق شَرَخَها (سلام)..

ثم فجأة..

برقت اللؤلؤة بالفعل..

وانطلق شعاعها في صورة خيط عمودي امتد إلى سقف المجلس..

وصرخ الجميع دَفْعة واحدة..

ووقفوا في انبهار عجيب!!..

شفاعة..

قبع رجلان من كبار السن في غرفة الاستقبال في حصن (نخل)، وقد أسند أحدهم ذقنه إلى العصا في انتظار أن يأذن العسكر لهما بالدخول على الشيخ الوالي..

- تفضلوا يا جماعة الخير..

ألقى عسكري العبارة وهو يشير إليهما بالدعوة إلى الخروج من الغرفة للذهاب إلى مكتب الوالي..

مشى الرجلان في فناء الحصن الذي يربط بين غرفها وأبراجها؛ حتى بلغا المكتب واستأذنا بالدخول..

لم يصرح لهم الوالي بالدخول بلسانه؛ بل بإيماءة من رأسه..

وقفا دقيقة كاملة أمام رجل أزهر الوجه، طويل القامة، قد تجاوز الخامسة والأربعين، وكسته لحيته البيضاء المشوبة بالسواد جمالا، وزادته عمامته البيضاء جلالا..

تعمد الشيخ (محمد) أن ينشغل عنهما بكتابة رسالة..

- مَن مِنكما اسمها (شَنُّوه)؟!..

ألقى الوالي عليهما السؤال بغتة، فنظر كل منهما بغرابة واستحياء قبل أن يقول العجوز صاحب العصا:

- أنا والد (شَنّة) يا شيخي الوالي..

- أنا لم أسأل: (مَن والدها)؛ بل قلت: مَن منكما اسمها (شنة)؟!..

احمر وجه العجوز مرة أخرى قبل أن يقول:

- ليس بيننا (شنة) يا شيخي.. فأنا أبوها، وهذا عمها..

- لكنني لم أطلب من أحدكما أن يأتي إليَّ؛ بل طلبت من (شنة) أن تأتي بنفسها..

زمجر الشيخ بهذه العبارة وهو يضرب بيده على المنضدة، فارتبك الرجلان، وجثا العجوز على ركبتيه متوسلا، وهو يقول:

- شيخي الجليل.. أرجو أن تسامحها؛ إنها صبية لا تعقل ما فعلته..

- صبية!.. صبية وعمرها قد تجاوز الثلاثين؟!..

قالها الوالي وقد زَوَى حاجبيه في استنكار صارخ..

- إنه يقصد أنها فتاة غير رزينة، ولا تفهم أحكام الشريعة، ولا تزن الأمور بـ..

تدخل عمها ليساعد أخاه في الاشتفاع لابنته، فقاطعه الوالي:

- أتشفعون فيما حكم به الله ورسوله صلى الله عليه وسلم؟!..

انتفض الاثنان لعبارته، ولم يدريا ما يقولانه؛ فلم يكن لهما أدنى حق فيما جاءا من أجله..

ولم يمهلهما الوالي ليتحدثا من جديد؛ بل وضع قراره النهائي في صرامة:

- أخبرا (شنُّوه) بأنها إن لم تأتِ وحدها إلى هنا فإنا سنأتي بها..

لم يستطع الاثنان أن يهضما ريقهما، وانسد مجرى النَّفَس في حلقهما عن الكلام، فظلاّ واجمين لا يعرفان ماذا يقولان ولا ما يفعلان، حتى ارتجفت أضلاعهما حين صرخ فيهما الوالي وهو يقوم من كرسيه:

- هيا زُولا من هنا!..

حاول كل منهما أن تحمله رجلاه بسرعة إلى الخارج؛ لكن كلا منهما اصطدم بالآخر من الهلع والارتباك، ولم يُسْعِفْهما في القيام إلا صرخة أخرى من الوالي وهو يقترب منهما:

- هيا بسرعة!..

اللصوص..

مر شهر كامل على مجيء (سلام) إلى وطنه..

قضى أيامه في زيارة أرحامه، ولقاء خلانه..

ضيّفه كثير ممن كان يعرفه في صباه؛ ليأنس بحكاياته، ويسمع قصة كفاحه، ولاسيما قصته مع اللؤلؤة المشعة التي استخرجها من قاع البحر وأخفاها عن (النوخذه) الجشع الذي ظل يستغل نَصَبَ الغواصين ليهنأ هو بالعيش الرغيد دونهم..

امتدت علاقاته إلى مكتب الوالي؛ إذ كان يقصده مع سائر أعيان محلته في زياراتهم الاجتماعية إلى الحصن؛ للانتفاع من علم الشيخ والاستئناس بحكمته وإرشاداته، فتعرّف عساكره كلهم، وتجول في عنابر القلعة (أو الحِصْنِ) ودهاليزها ومرافقها..

ها هو (سلام) في هذه الليلة يتجه بعد صلاة العشاء ليسهر مع صديق له في (العُقَيْبة)..

كانت الطريق من (القبيل) حيث يسكن (سلام) إلى (العقيبة) تمر بمزارع على الضفة الغربية للوادي، ثم تنتهي عند شرجة تتقاطع مع الوادي فتفصل بين المزارع ومحلة (العقيبة)..

بلغ (سلام) نهاية الطريق، وأراد أن ينزل إلى الشرجة؛ لكن..

امتدت يد من خلفه تحمل عصا غليظة لم يشعر بها، وهوى صاحب اليد بالعصا على قفا (سلام)، فضربه ضربة متمرّسٍ أفقدته وعيه..

التفت صاحب العصا إلى خلفه ونادى بصوت خافت:

- (غريب).. (صلاح)..

خرج من وراء بعض النخيل زميلاه، فأسرع أحدهم يضع لفافة قماش على فم (سلام) على حين انشغل الآخران بتقييد قدميه ويديه، ثم تعاونوا على حمله إلى إحدى مغارات جبل (بان)..

ظل (سلام) غائب الوعي ساعة كاملة على الرغم من أن الرجال الثلاثة استعملوا معه الماء لينبّهوه..

ظلوا بجواره طوال الساعة وقد أزالوا الكمامة عن فمه، وأبقوا على رباطَيْ قدميه ويديه..

بعد تلك الساعة شعروا بأنينه وقد بدأ يعلو تدريجيا، فهبوا يرشون وجهه بالماء..

بدأ يفتح عينيه ليرى الصور أمامه مائعة قبل أن يستقر نظره على حاله الطبيعية..

حاول أن يقوم من رقاده؛ لكنه شعر بالقيود، فاضطجع جانبا ليستند إلى الأرض بيديه المقيدتين، ويساعد عموده الفقري على الجلوس..

استطاع الآن أن يجلس، وتلفت حوله فرأى ثلاثة رؤوس متلثمة تحيط به كالقيد المحيط بالمعصم.. ثم حدق في المكان فرآه كالمغارة عُلِّق على الجانب العلوي من جدرانها بعض المواقد التي لم يُشْعَل منها إلا موقد واحد؛ لئلا تلتهم النار كمية كبيرة من الأوكسجين..

- أين اللؤلؤة؟..

بادره (شهبار) بالسؤال دون مقدمات، فأجاب منكرا:

- أي لؤلؤة؟!..

لم يستمع إلى رد على سؤاله بل شعر بظهره وهو يلتهب إثر خيزران جَلَدَهُ بها (صلاح) وقد كان وراءه، فلم يتمالك حتى صرخ من الألم؛ لكن صرخته

لم تكتمل إذ تلقى شدقه لكمة من (غريب) أخرسته!..

- أين اللؤلؤة؟..

أعاد إليه (شهبار) سؤاله الأول..

- إنها في بيت والدي..

لم يكد يتفوه بالعبارة حتى قفز عليه (غريب)، فجثم على صدره، وصار (سلام) مسجّى تحته، وهو يحدق برعب في نصل الخنجر وقد صار قاب قوسين من رقبته..

- هل تظن أنا مغفلون؟!.. قد فتشنا بيت والدك عن اللؤلؤة بالفعل، ولو أننا استطعنا العثور عليها في أي مكان تذهب إليه ما أحضرناك إلى هنا.. وإذا لم تعترف بالحقيقة فسأذبحك في مكانك.. هنا..

خرج هذا الوعيد من لسان (غريب)، فبلع (سلام) ريقه في الحال قبل أن يقول:

- إن اللؤلؤة موجودة معي هنا، وإذا أردتموها ففكوا قيودي..

نظر (غريب) و(صلاح) إلى (شهبار) وقد بدا العقل المدبر بينهم، فقال (شهبار):

- كيف ذلك؟!.. قد فتشنا كل شبر فيك، فلم نجد أي شيء يمكن أن يسمى لؤلؤة..

أراد (سلام) أن يضحك من غبائهم؛ لكنه خشي على نفسه، فقال لهم:

- فكوا قيدي وستعرفون الحقيقة..

نظر (غريب) و(صلاح) مرة أخرى إلى (شهبار) قبل أن يقول هذا الأخير:

- لا بأس فكوا قيده، فلن يُفْلِت مادام بيننا.

فكّا قيده، فتنفس الصعداء قبل أن يقول:

- أين (مِصَرِّي) ؟

- هذا هو..

أشار (صلاح) إلى المصر المعلق على جدار المغارة؛ لكنه قال:

- قد فتشنا مصرك أيضا فلم نجد فيه سوى بعض القطع الغريبة المفككة..

أخفى (سلام) ابتسامته الساخرة وهو يقول:

- إن تلك القطع المفككة هي التي ستكشف السر الذي أخفيتُه عن الجميع..

نظر بعضهم إلى بعض نظرات استغراب، قبل أن يناوله (صلاح) أربع قطع..

ركّب (سلام) القطع الأربع، ثم قال:

- إذا أردتم أن تروا اللؤلؤة على حقيقتها الآن فأطفئوا الموقد؛ لأن اللؤلؤة لا يمكن أن تظهر إلا في الظلام الحالك..

ارتاب (صلاح) و(غريب) فالتفتا إلى (شهبار)، فقال هذا الأخير:

- لقد سمعنا من الناس زَعْمَك أن شعاع اللؤلؤة يعمي الأبصار إن تسلط على العيون، ونحن الآن بجوارك، فلوا آذيت أحدا منا فثق أننا لن نتردد في قتلك..

- لا تقلق أيها الزعيم.. إن هذه المزاعم مما أشعته بين الناس وليس له أدنى وجه من الصحة..

- نحن لا نعلم صدقك من كذبك.. لكننا حذرناك.. سيطفئ (صلاح) الموقد، ونبقى نحن الاثنان أمامك، ومعنا خناجرنا لنقطع عليك أي محاولة للهروب أو التلاعب..

- موافق!..

هز (سلام) رأسه بالكلمة، فهب (صلاح) ليطفئ الموقد؛ على حين قعد (شهبار) و(غريب) أمام (سلام) يَسُدّان مدخل الكهف الوحيد..

انطفأ الموقد، وانتظر الثلاثة بكل شغف سطوع اللؤلؤة، وقال (شهبار) متعجلا:

- هيا أسرع..

ضغط (سلام) الزر..

وسطع ذلك البريق المعهود..

وانبهر الثلاثة باللؤلؤة..

ثم قطع (سلام) عليهم نشوتهم إذ قال لـ(صلاح):

- أشعل الموقد الآن يا (صلاح) ليرى الجميع اللؤلؤة على حقيقتها بأعينهم..

استجاب (صلاح) لأمره دون تردد شغفا برؤية اللؤلؤة، فأضاء الموقد، والتقت أعينهم كلها في يد (سلام) وهي تحمل اللؤلؤة..

لكن..

وعلى غير ما توقعوه..

خابت آمالهم..

لأنهم أدركوا أن اللؤلؤة لم تكن سوى تلك القطع الأربع..

ولم تكن القطع الأربع سوى اختراع جديد لا يعرفون كُنْهَه ولا يعرفه أي أحد من أهالي البلد..

اختراع جديد اسمه: المصباح اليدوي الذي يعمل بالبطاريات!!!..

تدفق دم الغيظ في عروق الثلاثة -بعد أن شرح لهم (سلام) فكرة المصباح وحكاية حصوله عليه، وأعلمهم أن لديه مصباحا يدويا آخر للاحتياط وبطاريات احتياطية أيضا- واحمرت أعينهم من الغضب، وقبل أن يبادروا بأي حماقة قال لهم:

- إن معي ما هو أفضل من اللؤلؤة!..

ترددت الشكوك في نفوسهم، فلعلها خدعة أخرى أو أكذوبة من أكاذيب

(سلام)؛ لكنه استمر في حديثه غير مبالٍ بشكوكهم:

- كنت أعلم أن الإشاعة التي صنعتها حول اللؤلؤة ستلفت انتباه من يطمع في سرقتها، وكنت أنتظر هذا اليوم لكي أشرف باللقاء بكم، فأنا أمتلك كل المهارت اللازمة لأكون واحدا من فريقكم، ولعل خدعة المصباح كافية للدلالة على دهائي..

- وما الذي ستقدمه لنا وزعمت أنه خير من اللؤلؤة؟!..

سأله (شهبار) باستهجان، فأجابه على الفور:

- سأجعلكم تكسبون المال الكثير من السرقات؛ دون خوف من الوالي وعساكره؛ لكن بشرط واحد..

تبادلوا النظرات قبل أن يقولوا بصوت واحد:

- ما هو؟

- أن أكون زعيمكم من اليوم فصاعدا!..

نظر (غريب) و(صلاح) في وجه (شهبار) ليبدي رأيه، فقال هذا الأخير بعد تفكير عميق:

- ليس قبل أن تُثْبِت لنا أن لك مهارة تفوقنا..

- موافق!..

لفظ (سلام) بالعبارة سريعا وهو يضع يديه في يد (شهبار)..

وكانت بداية الصفقة!..

ياسر نقْمة!..

استأذن قائد العسكر من واليه في حصن (نخل) ليدخل عليه في مكتبه، فأذن له..

- السلام عليكم شيخنا الجليل..

قالها القائد وهو يقف على بعد بضعة أمتار من منضدة الوالي؛ في غرفة طويلة سُطِّرت على جانبيها النمارق.. وعُلِّق على جدرانها بندقيتان من نوع «الصمع» و«الخميسي» مع حزامين لرصاص كل منهما.. وصُفَّتْ في رَوْزناتها بعض أطباق الزينة والأواني الزجاجية المختلفة الألوان..

كان الوالي في ذلك الزمان هو القاضي نفسه، فهو الذي يتولى تنفيذ سياسة الإمام في الرعية، وهو الذي يتحاكم إليه الناس.

كان الوالي حريصا على أمن البلدة، عادلا بين أهاليها، أمينا على أموالهم وأرواحهم وأولادهم، وهو بعد هذا فارس مغوار، يرتدي عمامة بيضاء، وقد كساه شَيْبُه هيبة ووقارا..

وعلى الرغم من سطوته على المتمردين والخارجين عن حدود الطاعة؛ فإنه كان سَمْحا مُوَطّأ الأكناف مع عامة الناس، بشوشا يحب المزاح المعقول..

- وعليكم السلام يا زاهر الخير.. كيف حالك؟

- بخير شيخي.. وأنت.. كيف أصبحت؟..

- الحمد لله..

صمت الوالي هنيهة حتى انتهى من ترتيب أوراقه على منضدته، ثم استند بظهره إلى المقعد وهو يقول:

- قل لي يا زاهر.. هل سمعت بحكاية (حَسِينَة) راعية الغَلْيُون؟

- نعم شيخي.. أنت تقصد (حَسِينَة) التي تعيش في (السِّرَيْر).. قد تسربت بعض الشائعات التي تقول إنها تتكسب من التبغ، ولا ندري حقيقتها.. أتريد منا أن نفتش بيتها ونقبض عليها متلبسة؟..

- لا لا..إنها حريصة على ألا ينكشف أمرها، لأنها تعرف عقوبة ترويج الدخان جيدا، ولذا فهي لا تقدّمه إلا لأراذل الناس ممن تثق بهم تماما، ولا شك في أنها تخفي التبغ والغليونات في مكان لا يعرفه سواها، ولو فتشتم بيتها لَما وجدتم شيئا، وستدرك أننا نتابعها، ويكون القبض عليها بعد ذلك أشد صعوبة؛ لأنها تكون أكثر حذرا وإمعانا في إخفاء أي بيّنة عليها..

- ولكننا لا نعرف الذين تبيعهم الدخان، ولا نستطيع أن نخفي شخصياتنا عن أحد، فجميع أهل البلد يعرفون عساكر الوالي واحدا واحداً.. فما عسانا أن نفعل؟!..

- الأمر يسير للغاية.. هل تعرف السجين (ياسر) الذي سجن قبل شهرين؟..

- نعم أعرفه.. ذلك الشاب الضخم الجثة.. القليل العقل!..

- أتذْكُرُ لماذا سُجِنَ؟..

- وكيف لا أذكر؛ وكل أهل البلد يعرفون هذا الرجل المتعجرف؟!.. سُجِنَ لأنه كان يؤذي أهالي البلدة بالكلام البذيء والأفعال الشنيعة، ولا يكاد يمر عليه يوم إلا وقد ضرب بعض الشبان أو آذى بعض الأطفال؛ حتى ذاع صيته السيء بين الأهالي، وصاروا يلقبونه بـ(ياسر نَقْمَة)..

- صحيح.. قد اشتكى منه خلقٌ كثير وشهدوا على أفعاله، فحكمنا عليه بالسجن ولم نخبره بالمدة التي سيقضيها تعزيرا له حتى يتوب عن أفعاله ويتأدب.. ورأيتُ بعد أن دخل السجن وقضى فيه شهرين أن حالَه حَسُنَت، ولم يعد ذلك الشاب المتهور العنيد؛ بل صار شابا وَدُودا.. فيبدو أن التعزير

قد آتى أُكُلَه..

صمت الوالي لحظة استغلها القائد ليبدي سؤاله الحائر:

- إذا كان الشيخ يريد منا إطلاق سراحه، فما علاقته بأمر (حَسِينَة)؟..

- لا يغادر الحصن حتى نكافئه بمالٍ مُجْزٍ..

لم يستطع قائد العَسَس أن يفهم ما يدور في ذهن الشيخ، فقد كان ما يطلبه غريبا جدا..

بل كان جُنُونا!..

شيمة وكرم..

- طق.. طق.. طق..

طُرِق باب بيت (سعيد) في محلة (الجباجب) وقد صافح الأصيل السماء..

كان (سعيد) ساعتها يُعِدّ نفسه للتوجه إلى حصن (نخل) بعد المغرب لينوب غيرَه في حراسة الحصن كعادة العساكر الذين يتناوبون على العمل فيه وعلى خدمة الوالي..

كان منزله -المبني من جدران طينية وسقف معمول من سعف النخيل وأرضية من الحصباء- يضيق بأولاده وزوجته؛ إذ لم يكن فيه سوى غرفتين بينهما دهليز، فكانت الغرفةُ الأولى غرفةَ النوم والردهة معا، وكان الدهليزُ المطبخَ نفسه، وكانت الغرفةُ الثانيةُ المجلسَ والمخزن الذي تتكدس فيه لوازم البيت..

توفي والداه عنه وليس لهما ولد سواه، ولم يخلفا له سوى هذا المنزل الصغير..

كان يعيش في شظف من العيش، ويقتات براتبه الضعيف ما لا يسد بطون أبنائه الخِماص..

توجه إلى الباب ليعرف حاجة الطارق وقد نزل في غير ميعاد..

فتح الباب بهدوء وهو يحدق في القادم، فبادره الطارق بالتحية:

- كيف حالك (سعيد)؟..

- أوه.. أهلا (سلام)!..

- من الجيد أنك تحفظ اسمي!..

- طبعا فالناس تتحدث عن مغامراتك، وقد رأيتك تزور الشيخ الوالي.. ثم إني أعرف الوالد الكريم (مبارك)، فنحن وهو من قبيلة واحدة؟!..

- نِعْمَتِ القبيلة.. ونِعْمَتِ المعرفة..

طلب (سعيد) من ضيفه أن يتكئ على إحدى النمارق؛ وصرف هو وجهه ليتناول قفيز رطب معلقا وهو يقول:

- اعذرني.. فأنا لا أملك في بيتي إلا التمر.. ولعلك تعلم بحالي!..

امتدت يد (سلام) لتتناول من الرطب وهو يقول:

- بل اعذرني أنت؛ إذ أزورك في غير موعد..

- لا لا.. لا تقل ذلك.. تفضل في أي وقت، وخذ راحتك..فهذا بيتك..

قضم (سلام) رطبة ثانية وهو يضيف:

- بارك الله فيك.. هذا من حسن أخلاقك..

ثم شاركه (سعيد) في الأكل مجاملة، وسأله:

- هاه.. قل لي ما أخبارك؟ وما أخبار والدك وإخوتك؟..

- نحن بخير.. والفضل لله.. كيف حالك أنت، وعُمومتك، وجِيرتك؟.. كلهم بخير؟..

- كلهم بخير.. ولا يشكون شيئا.. الحمد لله..

صمت (سعيد) ليفسح المجال لـ(سلام) ليقول ما يريده، فشرع هذا الأخير في الحديث مرة أخرى:

- أنا أعتذر أولا عن إزعاجك.. وأنت إنسان مشغول.. ولعل وراءك أعمالا مع الشيخ الوالي..

- لا أبدا.. أنا فرح بزيارتك الكريمة..

توقف (سلام) لحظة، ثم واصل:

- الحقيقة.. أنت تعرف أخي العزيز أني غبت عن البلد اثني عشر عاما لأجلب الرزق للوالد والإخوة ولنفسي.. وعملت مدة غيابي في الغوص في أعماق البحار..

- نعم.. سمعت بهذا.. وأُخْبِرْتُ أنك استخرجت لؤلؤة ثمينة من باطن البحار!..

- الحقيقة أني بعت اللؤلؤة بمبلغ مناسب؛ لكني سددت ديون والدي الكثيرة، وبقي لي ما يغنيني الله به..

- فيك الخير والبركة يا (سلام).. أبقاك الله لوالدك وإخوتك..

دعا له العسكري المسكين بصفاء نية؛ إذ لم يكن يعرف شيئا عن اللآلئ، ولا يملك من المعرفة الواسعة ما يمكنه أن يجاري (سلام) في حديثه ودهائه ولو قليلا، فقد انتفع سلام من تجارب السفر، وصقلته الغربة، وحنكته علاقاته مع الناس..

- أخبرتني أختي -وهي وزوجتك على تواصل - أنك مدين للتاجر خلفان بعشرين قرشا..

- وما أدراها بهذا الدين؟!..

سأل (سعيد) في حياء، فرد عليه (سلام) فورا:

- وهل تُبْقِي النساء على سر إذا اجتمعن فيما بينهن؟!..

- صدقت!..

- إن والدك رحمه الله كان صديقا لوالدي، وزوجتك هي ابنة خال الوالدة، وقد رأيت من الإحسان أن أقدم لك ما يعينك على قضاء دينك على الأقل..

قالها وأدخل يده في جيبه الداخلي، وأخرج منه صرة نقود، ورفع يده ليناولها (سعيد)؛ لكن (سعيد) استحيى أن يمد يده وقال:

- بارك الله فيك، لا داعي لأن تكلف نفسك يا أخي (سلام)، فالأمور على

ما يرام، والله يفرج الكروب..

- خذ النقود ولا تخجل.. ليس في الأمر تكليف طال عمرك..

تردد (سعيد) في أخذ المال حياء؛ لكنه في النهاية قبله وهو يقول:

- جزاك الله خيرا.. لكن اجعله دينا علي، فقد تحتاج إليه إذ لا تزال غير متزوج، ثم إنك تنوي أن تساعد أباك وإخوتك..

- أنا لا أفكر في الزواج الآن، والمال لا ينقص مادام في الصدقة، صحيح أنه لم يبق لي إلا اليسير؛ لكني لست محتاجا إلى المال ما دمت قد وفيت دين الوالد..

- جزاك الله على معروفك.. وزادك خيرا.. وسهل أمورك..

- الله يجزيك الخير أيضا.. ويسهل أمورك دائما.. والآن اسمح لي بالاستئذان..

- لماذا أنت مستعجل يا رجل؟!.. لم تجلس معي بعدُ!..

- جلسنا معك طوّل الله عمرك، والوقت الآن غير مناسب، فاعذرني..

- معذور.. بالعكس.. فأنت آنستنا وأكرمتنا ولم نكرمك نحن بشيء..

- بل أكرمت ووفيت.. يا الله.. السلام عليكم..

تصافح الاثنان، وودّع (سلام) مضيفه..

ودّعه بكل رحابة صدر!..

شجار..

دَخَل شاب لم يتعدّ الخامسة والعشرين محلة (السِّرَير)، وهو يرتدي دشداشة قصيرة لم تتجاوز فخذيه، وإزارا مخططا بخطوط زرقاء عرضية تتقاطع مع خطوط حمراء طولية..

كان الشاب كثّ الشعر، رثّ الملابس، وهيئته تبدو مَقْزُوزة من أول وهلة..

مرت به ثلاثة أيام وهو في كل مرة يقتحم هذه القرية في الثلث الثاني من الليل..

ثم يتصنع التجوال فيها قبل أن يقصد التنصّت على بيت محدد..

في هذه الليلة أيضا ظل يحوم حول البيوت وقد هجعت حركتها؛ قبل أن يصل إلى البيت المنشود..

أرهف سمعه لينظر إن كانت النفوس قد استسلمت للصمت..

مرت دقائق يسيرة قبل أن يشعر بجَلَبَة قريبة..

ظنها في البداية أصوات شخوص تقترب من موقعه؛ لكنه لم يسمع أي وقع للأقدام..

أرهف سمعه ثانية..

بدأ يسمع بعض الأصوات الهامسة..

ترك مكانه عند باب مجلس البيت.. ودار نصف دورة حول سُور البيت؛ ليتنصت على غرفة أخرى في الجهة المقابلة للمجلس يفصل بينهما الفناء..

ألصق أذنه بجدارها إذ لم يكن لها باب إلا من داخل البيت..

سمع أصواتا مغضوضة تتحدث فيما بينها..

تأكد الآن أن في الغرفة قوما يتسامرون، فاتجه صوب نافذتها الخشبية الوحيدة، ودَقَّ ألواحها دقات متتالية..

انتظر لحظات فلم يُجِبْهُ أحد..

فدق ثلاث دقات، وقال:

- افتحوا لي الباب أنا «ياسر نقمة»!..

خيم الصمت على الغرفة هذه المرة، فأردف ياسر:

- إذا لم تفتحوا لي فسأقتحم البيت!..

جاءه صوت من داخل الغرفة دون أن يفتح له النافذة قائلا:

- ماذا تريد يا نقمة؟!..

- أريد.. أرمس.. معكم..

قالها بكل استهتار وهو يهز رأسه ويده إلى أسفل مع كل كلمة ينطقها كالمخبول..

- وأنت متى طلعت من السجن يا نقمة.. الله ينتقم منك!..

سأله بسخط رجل آخر منهم، فأجاب براحة بال:

- من يومين!..

- من يومين يا أيها الظالم، ولا تزال على غير توبة؟!..

- لا أريد أن أتقدمكم في التوبة!.. هاهااي!..

قالها بصوت مُجَلْجِل، فردّ عليه أحدهم مهدّدا:

- اسمع يا نقمة!.. هذا ليس بيتك، وما لك دخل في بيوت الناس..

لم يطق (ياسر) هذه اللهجة الوعيدية، فصرخ مزمجرا:

- لا أحد يجرؤ أن يقول هذا الكلام لياسر نقمة.. إذا لم تفتحوا لسيدكم الباب فسأدخل رغم أنوفكم جميعا.. وإلا أصابكم مني ما تعرفونه عني!..

- ألا يمكن لأحد في هذه البلاد البغيضة أن يأخذ راحته.. حتى في بيته؟!
قالها أحدهم مبديا سخطه بلكنة بدا فيها الخوار والاستسلام، ثم توقف الكلام بين الطرفين، وأنصت ياسر إليهم وهم يتشاورون قبل أن يجيبه أحدهم:

- ما رأيك.. نعطيك صرة من النقود على أن تنصرف من هذه القرية كلها!..

- اقتراح جيد!..

لم يصدق المتحدث معه ما قاله حتى فتح له النافذة رافعا مِزتاجها وهو يمد يده ليعطيه بعض القروش..

تقدم ياسر وهو يصطنع الرضا نحو النافذة..

ومد يده إليها..

لكنه بدلا من أن يتناول النقود أمسك بمعصم الرجل، ولبّبه من جلبابه، ثم سحبه إلى خارج النافذة.. وبدأ يعصر رقبته بذراعه..

يعصرها بكل ما أوتي من قوة!..

مهنة جديدة!..

- شيخنا المحترم.. (سلام بن مبارك) يود مقابلتك، فهل ندخله الحصن؟..
نطق العسكري بالعبارة أمام الوالي في أدب جَمّ..
- ماذا يريد؟!.. هذا الوقت هو وقت تفرغي للمطالعة، وليس وقتا للشكوى والقضاء!..
- لا أدري؛ لكنه يقول إنه يريدك في موضوع ضروري..
- زين.. دعه يأتِ..
قالها الوالي في امتعاض، وانتظر حتى مَثُل (سلام) بين يديه..
انحنى (سلام) وهو يلقي على الشيخ أجمل سلام، وأعظم تحية..
تعجب الشيخ منه إذ ليس بينهما صداقة حميمة، ولا تَلْمَذة ودراسة، فقال:
- وعليكم السلام وأجل الاحترام!..
- سامحني شيخي إذ جئتك في هذا الوقت الحرج..
- مسموح.. تفضَّلْ هاتِ ما عندك!..
- شيخنا عالي المقام.. إن حال أسرتي ضعيفة.. وقد قضيت اثنتي عشرة سنة في (شناص) أترزق، فلم أنَلْ شيئا من نَغَص العيش وذِلّة الغوص إلا شيئا يسيرا لا يكفي لتحسين حال جميع الأسرة..
- احمدِ الله على كل حال..
- بالطبع.. الحمد لله حق حمده..
صمت الاثنان لحظات وكل منهما ينظر في الآخر حتى بادر (سلام) بالكلام إذ أحس أن وقت الوالي يضيق عن شرح حالته، فقرر اختصار المقدمات والدخول في الموضوع فورا:

- شيخي الوالي.. أنا جئت طالبا منك أن تقبلني عاملا للدولة في الحصن لأشرف بخدمة شيخنا الجليل..

فكر الشيخ قليلا قبل أن يقول له:

- يسعدنا أن نجد من يخدم الدولة.. لكني لا أُوَظِّف أحدا إلا إذا وجدتُ نقصا في عدد العساكر، فأُرْسِل رسالة إلى الإمام ليقبل بتوظيف عسكري جديد.. فإذا قبل أعلنا عن الوظيفة في السوق، ثم نبدأ بتفرّس المتقدمين، واختبار أذهانهم وأبدانهم حتى نختار الرجل الكفء.. وعلى العموم فليس في نيتي الآن أن أوظف أحدا؛ لأن عددهم حتى الحين كاف.. فأرجو المعذرة!..

ابتسم (سلام) قبل أن يقول:

- معك الحق شيخي في كل ما قلته؛ لكن أنا لا أريد أن أكون عسكريا!..

- إن لم تكن ترغب في أن تلتحق بالعساكر؛ فينبغي أن تكون ذا دراية واسعة بالفقه لتُقْبَل جابيا للزكاة أو مساعدا لي في القضاء..

- للأسف شيخي.. أنا لا أعرف شيئا من العلوم حتى القراءة والكتابة!..

قالها وهو يبتسم منتظرا أن يستشف الشيخ غرضه، فقال الشيخ متعجبا بعد أن احتار في أمره:

- أخبرني ما الذي تريده إذن؟!..

- قافر!..

لم يكد ينطق بالكلمة حتى تراجع ظهر الوالي إلى مسند الكرسي، وقد نفذت الفرحة إلى قلبه، وصعدت بسمتها إلى محياه..

ذلك لأن تخصص القفر كان نادرا..

بل معدوما..

ليس معدوما في (نخل) وحدها..

بل في كثير من الولايات في عُمان!..

صراع الدخان..

صرخ الرجل من الألم.. وخرجت عيناه من مَحْجَريهما من الذعر..
لكن (ياسر) لم يكترث؛ بل واصل عصره لرقبته..
انتفض رفقاء الرجل من داخل الغرفة مستجيرين:
- اتركه.. اتركه.. ستقتله..
- لا أتركه حتى تدخلوني معكم.. وأشارككم في متعتكم..
ثم زاد من ضغطه على نَفَسِ الرجل، فتأوه تأوّها مكتوما، فصرخت امرأة بين المتسامرين كانت هي صاحبة البيت:
- ماذا تنتظرون؟!.. افتحوا له الباب بسرعة.. سيموت (لال)..
- هب كل الرجال الثلاثة إلى نجدة صاحبهم، وهم يتسابقون إلى خارج البيت ليفتحوا الباب وينقذوا رفيقهم..
رأى (ياسر) القوم قد فتحوا الباب وأقبلوا عليه، فأرخى يده وترك رقبة (لال)..
لم ينتظر ياسر حتى يناقشه الرجال فيما فعله بأنيسهم؛ بل توجه بكل برود إلى داخل البيت قاصدا الغرفة..
دلف إليها فإذا بصره يقع على أوراق الدخان والغليونات الملقاة أرضا..
أخذت (حَسِينة) تزجره على ما فعله؛ لكنه لم يلتفت إليها؛ بل تناول غليونا واحدا وكمية من أوراق التبغ، وقال لها وهو يستعد للخروج:
- هذا نصيبي الذي كنت أريده منكم.. وأنا سامح من السهر معكم!..
لم يلبث (ياسر) أن غاب عن أنظار المتسامرين حتى اقتحم المكان

عسكر الوالي، فطوقوا الرجال في الحال، وقبضوا عليهم متلبسين..

وتقدم (زاهر) إلى الغرفة.. حيث تتوارى (حسينة)..

ولم تكد ترى (حسينة) قائد العسكر أمام عينيها؛ حتى أدركت أي نقمة جلبها إليها (ياسر)..

أدركتها تماما..

لكن..

بعد فوات الأوان!..

اقتحام..

تجاوز الزمانُ منتصف الليل، وبقي ضوء البدر ينحدر إلى البقاع التي تشملها منطقة (العِلاية)، ولاسيما تلك البقاع المكشوفة القليلة النخيل التي تجاور السلاسل الشامخة الممتدة من جبل (الشيبة) إلى جبل (بان) مرورا بجبل (دَعَن الْخِشْنَة) الذي تنبع منه عين الثوراة.

في محلة (الرسة) -القائمة على سند جبل (دَعَن الْخِشْنَة) الذي يحيط بشمالها وغربها، والمطلة على الوادي الواقع شرقها- نزل أربعة رجال من الجبل في خفية بالغة قاصدين حظيرة مواشٍ لأحد الشُّوَّان..

كانت الحظيرة غرفة كبيرة مقابل بيت صاحب الحظيرة الذي تجاوز سن الخمسين، ولم يكن يعيش معه أحد سوى أمه الهرِمة، ويفصل بين الحظيرة والبيت فناء بمسافة قدرها واحد وعشرون مترا، ويحيط بالبيت والحظيرة والفناء سياج حاد بالغ الارتفاع معمول من صفائح يتوسطها باب من الحديد المصفّحِ كُلِّه، ولم يكن يُجاوِرُ البيتَ أيُّ بيت آخر سوى بيت على بعد ستمائة متر..

كان باب السياج أقرب إلى الحظيرة، وكان البيت ملاصقا لسند الجبل من الخلف، فكان ارتفاعه من الخلف يسيرا على خلاف ارتفاعه من المقدمة المطلة على الفناء..

تقدم اثنان من الرجال المتوشحين بالسواد حتى وصلا إلى المكان الواقع خلف البيت؛ وقد حمل (الأول) ربطة حَبْل لفها حول عنقه، ووضع على كتفه بندقية نارية من نوع (السَّكْتُون) المعروف بانخفاض صوته مع قدرته على إصابة هدف بدقة على بعد مسافة قد تصل إلى 300 متر، وعلى بُعْدِ هذه

المسافة يمكنه أيضا أن يهدر دَمًا..

صعد (الأول) فوق كتِفَيْ (الثاني) فبلغ سطح المنزل بيديه، ومن موقعه فوق السطح أدخل مقدمة الحبل في الفتحة الأولى لتجويف المرزاب، وأخرجها من الفتحة الثانية، ثم عقد الحبل ورماه إلى (الثاني).

صعد (الثاني) وفي جيبه المصباح اليدوي، وقد حمل بإحدى يديه قطعة لحم، وباليد الأخرى فأسا..

وجاء دور (الثالث) و(الرابع) فتقدما حتى وصلا إلى ما وراء البيت، فرابطا في مكانهما؛ وفي يد كل منهما عصا غليظة، وحول خصرَيْ كل منهما خنجر..

حوّل (الأول) الحبل من وراء المنزل إلى مقدمته ليتدلّى إلى الفناء، ثم وقف بجوار (الثاني) فأشعل هذا الأخير المصباح، وسلط الضوء على أنحاء الفناء، وتابعه (الأول) ببصره حتى لمحا الكلب الحارس للمكان وهو يرقد جوار باب الحظيرة..

ألقى (الثاني) اللحمة على بعد أربعة أمتار من البيت فقط، وأخرج (الأول) حجارة كان يحتفظ بها في جيبه..

كان سقوط اللحمة غير كاف لإيقاظ الكلب تماما، فاضطر (الأول) إلى إلقاء الحجارة محاولا إصابة الكلب مهتديا بالضوء المسلط عليه..

وقعت الحجارة قرب الكلب في نفس اللحظة التي أطفأ فيها (الثاني) المصباح..

استيقظ الكلب من دَوِيّ الحجارة، وأطلق نبحَتين خفيفتين قبل أن يتقدم إلى اللحمة وقد جذبته رائحتها..

لم يكد يقترب من اللحمة حتى صار لقمة سائغة في مرمى السكتون وقد انتزعه (الأول) من كتفه..

أطلق (الثاني) شعاع المصباح في السماء، ثم طفق يخفضه تدريجيا حتى صارت دائرة ضوئه فوق وجه الكلب تماما..

كاد الكلب أن يشعر بوهج الضوء في عينيه لولا أن (السكتون) لم يمهله حتى يرفع وجهه في وجه خصومه؛ إذ انطلقت رصاصة واحدة منه كانت كافية لتخرسه إلى الأبد..

من أعلى سطح البيت أشار (الثاني) إلى (الرابع) و(الثالث) إشارة ضوئية بنجاح المهمة، فصار (الثالث) و(الرابع) أكثر تأهبا لأداء دورهما..

كان اللصوص الأربعة يتوقعون أن يستيقظ صاحب المنزل ليتكفل (الثالث) و(الرابع) بضربه ضربة تفقده وعيه؛ لكن صاحب المنزل كان يغط في سبات عميق؛ إذ لم يكن صوت الرصاص غير الْمُدَوِّي كافيا لإيقاظه..

بعد انتظار دل على عدم شعور أصحاب الدار بما جرى نزل (الثاني) و(الأول) بالحبل، فتوجه (الثاني) نحو الباب الحديدي، فوجده موصدا بالْمِزْتاجِ دون قفل، ففتحه..

ثم توجه نحو باب الحظيرة حيث يتنظره (الأول)، فوجده مقفولا بقفل نحيف، فضربه ضربة خاطفة بالفأس أطاحت به..

فتح الاثنان الحظيرة بهدوء، وأغلقاها على نفسيهما، وسلط (الثاني) الضوء على المواشي..

كان عدد الشياه يزيد عن خمس عشرة..

تعمّد الاثنان أن يختارا شاتين صغيرتين لهما صفات تميزهما، فتوجها نحو الأولى وكمّما فاها، وربطا رجلها اليسرى مع يدها اليمنى، وهكذا صنعا بالثانية..

على الرغم من ثُغَاء الشياه؛ فإن إغلاق باب الحظيرة، وبعدها عن البيت، وكون نافذتها على الجهة الخلفية منها-ساعد كل ذلك في أن ينجز الاثنان

مهمتهما سريعا دون صخب يلفت انتباه أصحاب البيت..

تعاون الأربعة في حمل الشاتين، ومضوا في الظلام يخوضون الوادي الضعيف الجريان، وتجاوزوا موضع (الْمَقْتَلَة) الذي يقع في الضفة الشرقية من الوادي المقابلة للضفة الغربية (الرسة).

وصلوا إلى مكمن في سهل جبل (الشيبة) حيث تركوا العدة اللازمة، فذبحوا الشاتين، وفصلوا اللحم عن سائر الأعضاء، ثم حمل اثنان منهما اللحم إلى مكان آمن، على حين حمل الآخران ما تبقى من العظام والشحم والإيهاب والْمَصِيرَيْنِ ونحوه؛ ليدفناه في أرض مزرعة اتفقوا عليها، وقرروا أن يلتقوا بعد الفجر في ذلك المكان الآمن؛ ليشووا اللحم ويقتسموه!..

الاختبار..

هَبَّتْ نسمات السحر على منطقة (الصارُوج) في (نخل)؛ فإذا فارسان يقتحمان المكان..

ترجّلا من فرسيهما واندفعا باتجاه واحد إلى غاية محددة؛ وهما يتلفتان حولهما ليتأكدا من خُلُوِّ المحلة من أي رقيب..

دخلا (وَقْف الصاروج) ولم يكن سوى مزرعة بها بعض النخيل وأشجار الموز والأمبا، تتوسط محلة (الصاروج) التي تقع غرب الحصن، ولا يفصل بينها وبين الحصن سوى الوادي..

تناول كل منهما مِجَزَّه فَحَزَّ قِنْوَيْنِ من أقْناء المَوْز..

حملا الأقْناء الأربعة في الحال على ظهر الفرسين، والتفتا يمنة ويسرة قبل أن يطويا الأرض مغادرين المكان..

مضيا إلى آخر مكان يمكن أن يتصوره العقل..

إلى المكان الذي يخشاه كل لصّ!..

إلى حصن (نخل)؛ حيث العساكر ومقر الوالي..

ربطا الفرسين كالعادة في الحظيرة المجاورة للقلعة..

واقتربا من بوابة الحصن الرئيسية دون وَجَل، و..

دقّ أحدهما الباب..

سأل الحارسُ -الذي كان خلف الباب مِن الداخل- عن هُوِيّة الطارق..

- أنا العسكري (خميس)، ومعي الشيخ الوالي..

أسرع الحارس (سعيد) يفتح الباب، ويقدم التحية للشيخ، ثم هرع ليحمل

عنه قِنْوَيْهِ بعد أن استأذنه، فسلمه الشيخ إياهما، وأمره هو و(خميس) أن يضعا الأقْناء في (بَخّار) الحصن..

مرّ الشيخ بباقي العساكر المناوبين على حراسة مرافق القلعة، وأمرهم أن يستعدوا لصلاة الفجر..

صلى الوالي بعساكره، فلما قضوا الصلاة قال لأحدهم:

- يا (محمود)..

- نعم شيخي..

- اذهب إلى (سلام بن مبارك بن سلّوم) الآن، واطلب منه أن يأتي إلينا في الحال..

- أمرك شيخي.. هل أطلب منه أن يُحْضِر شيئا معه؟..

- كلا.. أريده أن يَحْضُر هنا فقط..

- تمام..

نفّذ العسكري (محمود) الأمر، وانطلق وهو لا يدري ما الأمر العاجل الذي دفع الشيخ إلى أن يستدعي (سلام) في مثل هذا الوقت دون أن يتريث إلى الضحى..

مرت ساعة فإذا بـ(محمود) يتبعه (سلام) يطرق باب الحصن..

حرص حارس البوابة (سعيد) على راحة (محمود) بعد هذا المشوار بالأقدام، وطلب منه أن يستريح في غرفة المراقبة الخاصة بالحارس الملاصقةِ للبوابة؛ على حين قاد (سعيد) (سلام) إلى مكتب الوالي كما جرت العادة في النظام الأمني لحماية الوالي ومحتويات الحصن..

- تفضل بالجلوس يا (سلام)..

نطق الشيخ بالعبارة بعد أن رد بتحية الإسلام على (سلام)..

- يبدو أنه قد حدث أمر طارئ حتى تستدعيني في هذا الوقت يا شيخنا الكريم..

- سأخبرك بالأمر.. دعنا نأخذ فنجانا من القهوة أولا..

نادى الوالي العسكريَّ (سليمان)، وأمره بإعداد القهوة، ثم التفت الشيخ وهو يسلط نظراته الفاحصة على وجه (سلام) قائلا في نغمة مشكِّكة:

- قل لي يا (سلام).. كيف تعلمت القَفْرَ بالأثر وأنت غوّاص؟!..

لم يرفع (سلام) رأسه عن صَحْفة الرطب؛ بل قال ببرود وهو يقضم رطبة على الرغم من شعوره بشكوك الوالي:

- إن الذي يقفر بآثار الأصداف في أعماق البحار لا يصعب عليه أن يقفر في البَرّ!..

ثم رفع (سلام) رأسه وهو يبتسم في وجه الوالي، والتقت نظراته بنظرات الوالي وقد عجز أن يُفَنِّد منطق (سلام)، لكن الوالي أشاح بوجهه نحو الصحفة وتناول إحدى الرطب وهو يسأل من جديد:

- لكن أي عمل يأتي بالممارسة، وليس بالقياس، فلا يكفي أن يتعلم المرء الغوص ليظن أنه قادر على القفر!..

كان سؤال الوالي هذه المرة أشد خُبْثا، مما دفع بـ(سلام) إلى أن يتخذ موقفا حاسما لئلا يسترسل في أسئلته فيحرجه بما لا يعرف جوابه، فقال بلهجة أقرب إلى التحدي:

- إن من حق شيخنا الوالي أن يختبر -كعادته- من يرغب في توظيفه، فإذا ما سمع بأي حادثة سرقة في البلد أمكنه أن يضعني في موضع الاختبار..

كان من حنكة الوالي أنه لم يشأ أن ينتظر حدوث سرقة في البلد لا يعرف فاعلها فيختبر (سلام) في قدرته على اكتشاف مرتكبيها، وإنما قرر أن يفتعل السرقة بنفسه وبمساعدة من أحد عساكره، ثم يطلب من (سلام) في الحال أن يستعمل قفره لحل لغز هذه السرقة العجيبة التي لا يتصور (سلام) أن يرتكبها الوالي نفسه..

وإمعانا في إحكام الخطة وتجنب أي احتمال لتسرُّب ما فعله الوالي

و(خميس)- قرر الوالي أن يستدعي (سلام) سريعا لئلا يُفْشِي إليه أيَّ خبر أحدُ الأهالي زاعما أنه رأى الوالي وأحد عساكره يرتكبان السرقة؛ وإن كان هذا احتمالا بعيد المنال بعد أن نفذ الوالي و(خميس) العملية في حذر بعيدا عن أي رقيب..

- أنا أوافقك الرأي، وقد أحضرتك إلى هنا بالفعل لأختبر مهارتك في القفر..

أنصت (سلام) إلى الشيخ ليعرف تفاصيل المهمة:

- تعودت أنا وبعض العسكر أن نسري في بعض الليالي؛ لنطوف في المزارع وأموال الأوقاف، وقد رأينا البارحة (الصاروج) وقد سرق من وقفها أربعة أقْناء موزٍ.. فإن استطعت أن تعرف السارق وظّفناك في خدمة الدولة بإذن الله..

كان سيناريو السرقة محبوكا جدا، فقد تجنب الوالي أن يقول لـ(سلام) إن أحد الأهالي في (الصاروج) قد أبلغه بسرقة مال الوقف لئلا يشك (سلام) في سرعة وصول الخبر إلى الوالي؛ إذ من عادة الأهالي أنهم لا يكتشفون السرقات في ليلة حدوثها؛ بل في صباح اليوم التالي على أحسن احتمال..

وتعمد الوالي أن يقول لـ(سلام) أيضا إنه هو وأحد عساكره كانا يطوفان بالليل ومرا بـ(الصاروج)، ذلك لأن (سلام) إن وجد آثارا بالفعل فإنما هي آثار الوالي وصاحبه وفرسيهما، فيصرف نظره عن آثارهما ولا يتطرق إليه الشك فيهما، ويبقى أن يجد آثارا أخرى لغيرهما..

والأدهى من ذلك أن الوالي اختار أن ينفذ السرقة في أرض جافة لم تُسْقَ منذ ستة أيام، وقد نشف ريقها بفعل حرارة الصيف، فقد كان على علم بأوقات سقي مزارع الأوقاف التي هو أمين عليها.. اختار وقت الجفاف -ولم يختر الوقت الذي تسقى فيه المزرعة- ليصعب وضوح آثار الأقدام في الأرض المسروقة، فتَخْفَى الآثار إلا على العين البصيرة بالقفر في التراب اليابس..

حتى نوع الثمرة التي اختار الوالي قطعها كان مدروسا بعناية، فقد قطع

أقْناء موز، ولم يختر سرقة نَخْلَتَيْنِ؛ لأن سرقة الرطب تتطلب الصعود إليه على خلاف الموز الذي لا تحتاج سرقته إلى صعود شيء، وصعود الوالي وصاحبه إلى أعلى النخلة قد يترك بعض الآثار التي تَدِقّ على عين البصير لكنها لا تخفى على عين القُفّار..

إذن وضع الوالي كل ذكائه في حبك اللغز، ولم يترك ثغرة يمكن أن ينفذ منها أحد، وبقي على (سلام) أن يحل لغزا أشبه بالمعجزات من وجهة نظر أي قافر..

كان حظ (سلام) سيكون أحسن لو أن (الوالي) اختبره في اكتشاف مَن قام البارحة بسرقة الشاتين التي خطط لها (سلام)؛ أو اكتشاف أطراف أي سرقة ستظهر في البلد قريبا، ذلك لأن أي سرقة لا تحدث إلا بتخطيط زعيم اللصوص: (سلام)..

أدرك (سلام) أن الوالي أذكى مما كان يتصوّره، وأن عقله المدبِّر لا يفوقه أي عقل في طول البلاد وعرضها.. فما الحيلة الآن؟!.. وكيف الخلاص؟!..

أمر الشيخ العسكري (خميس) -الذي صحبه إلى موقع (الصاروج) وعاين السرقة- بأن يَدُلّ (سلام) على الموقع، ليبدأ بالقفر من موقع السرقة..

انطلق القافر المغلوب على أمره إلى (الصاروج) رديفا لـ(خميس) على الفرس، على حين استرخى الوالي في مكتبه ليرتاح قليلا قبل أن يذهب إلى السوق، وكله ثقة بأن (سلام) لن يعود إليه إلا خائبا..

ظل (سلام) ساعة كاملة وهو يتفحص أشجار الموز المسروقةِ منها الأقْناء، وقد بدأ العرق يتصبب منه..

ثم قرر أن ينتقل إلى فحص كل الأشجار في الوقف لعله يجد شيئا ذا بال!..

- إنها مشكلة حقا!!..

نطق (سلام) العبارة في تأفف أمام (خميس)..

مر الوقت، وطالت الساعات، ووسّع (سلام) دائرة البحث فشملت منطقة

(الصاروج) بأسرها؛ على حين بقي العسكري (خميس) يكتم شماتته طوال الوقت وهو يلازمه كظله ليتأكد أنه لا يستعين بأحد..

- يكفي!..

نطق بالكلمة (سلام) وهو يقترب من (خميس) بعد ما يزيد على أربع ساعات من القفر المضني..

- هل وجدت شيئا؟..

سأله (خميس) في شغف، فأجابه (سلام) وهو كاشح:

- أظنني سأصل إلى السارق؛ لكني محتاج إلى مزيد من التأمل..

أخفى (خميس) ابتسامته الساخرة بعد أن سمع لفظ (السارق)..

كان لفظ (السارق) الْمُوحِي بتوجيه التهمة لشخص واحد كافيا للدلالة على فشل (سلام) في أول امتحان له، وأما الحاجة إلى زيادة التأمل تعني عدم القدرة على الاعتراف بالقصور..

- يبدو أني نسيت شيئا..

قالها (سلام) وأشار إلى (خميس) بأن ينتظره دقيقة..

رجع (سلام) إلى شجرات الموز الأربع، فقطع من كل واحدة جزءا يسيرا، ووضع الأجزاء الأربعة في كيس كان يحتفظ به في جيبه..

ركب الاثنان الفرس عائدين إلى الحصن؛ وقد امتلأ عقل (خميس) ثقة بأن لقب (القافر) قد أطاح به مَكْر الوالي..

أطاح به إلى الأبد!..

الْغبن..

- لماذا قَبِلْتَ بالبيع إذن؟!..

تفوّه بالسؤال التاجر (عامر) في دُكّانه بسوق (نخل) وهو يخاطب بحِدّة تاجرا آخر غريبا عن البلدة..

- لم أكن أعلم بسعر السوق!..

تحدث التاجر (زهران) الغريب عن (نخل)، وهو يتصبب عرقا والقلق يغمر وجهه..

- كان يمكنك أن ترفض عرضي، وتأتي إلى السوق أولا لتتأكد من قيمة بضاعتك قبل أن تبيعني إياها!..

رفع (عامر) صوته في وجه (زهران)؛ ولم يكن هذا الأخير يملك حجة مقنعة ليدافع بها عن موقفه، وازداد قلقه من أن يخسر قيمة بضاعته مع إصرار (عامر) على موقفه..

واجتمع أهل السوق من التجّار والمتسوِّقِين حول دُكّان (عامر) ليستمعوا إلى هذه المناظرة، ولم يشعروا في خضم النزاع الدائر بدخول بعض أفراد عسكر الوالي إلى السوق الذي كان عبارة عن صَفَّيْنِ متقابلين من الدكاكين؛ ولاسيما أن العساكر تعمدوا -بأمر من الوالي- أن يستبدلوا بزيِّهم العسكري ملابس شعبية، شأنُهم شأنُ سائر الناس في بلدتهم..

- هلاّ سامحتَه يا (عامر) وأرجعت له بضاعته؛ فإنه في النهاية ضيف في بلادنا!..

تدخل بهذا الاقتراح أحد التجار المجتمعين حول الدكان، فأجابه (عامر)

بعصبية:

- لا.. لا أعيد إليه البضاعة.. هو ليس صبيا صغيرا لا يفهم البيع حتى نعذره..

- طيّب.. زِدْهُ في قيمة البضاعة قليلا حتى تتراضيا..

تقدم تاجرٌ آخر بالاقتراح؛ لكنه لم يجد أذنا صاغية من (عامر)..

- ما الأمر يا جماعة الخير؟!..

تلفت الجميع إلى السائل الأخير، وقد عرفه الجميع بصوته الصارم المعهود..

- يا شيخنا الوالي.. هذا الرجل المسمى (زهران) جلب أرُزًّا من الهند، وقد اشتريت منه جميع الأرز، وبعد بأن قبِل بالبيع جاءني إلى هنا يطلب فسخ البيع..

تَعَجَّل (عامر) في شرح ما حدث بينه وبين (زهران) للوالي لئلا يترك مجالَ حَدِيث لـ(زهران)؛ لكن الوالي بخبرته الطويلة لم يكن ليقضي لأحد دون أن يستمع إلى طَرَفَيِ النزاع..

- أخبرني يا (زهران) بالقصة منذ بدايتها..

وجّه الوالي أمره إلى (زهران) وهو يشير إليه بأن يتحدث، ولم يكن (زهران) يعرف الوالي لولا ما ذكره مَن كان حوله لحظتها:

- شيخنا الوالي.. كنتُ في فُرْضة (مَسْكَد) قبل أيام لأشتري بعض البضائع التي تأتي بها المراكب عادة من بندر عباس وكرمان وزنجبار وغيرها من البلدان، فرأيت مركبا محملة بالأرُزِّ قادمة من الهند لتوِّها، فحملتني نفسي على أن أُجَرِّب تجارة بيع الأرُزِّ؛ ولم أكن أتاجر به.. اشتريت تسعة بهارات بثلاثمائة شِلِنْج لأن صاحب السفينة -وهو من زنجبار- لم يرض بالقروش، ولمّا سألت عن قيمة الكيلو من الأرز في سوق (مطرح).. قيل لي إنه بثُمُنِ

القرش، فقلت أبيعه كله في (مسكد) لأحصل على 1125 قرشا؛ لكن أحدا من التجار لم يقبل أن يشتريه لوجوده بوفرة في سوق (مطرح)، فقلت أبيعه في غير (مسكد)، ونصحني جَمّال استأجرت منه الجِمَال لنقل الأرز بأن أبيع الأرز في أقرب المناطق إلى (مسكد) لتكون تكلفة النقل أخف فيكون لي ربح وافر، واقترح لي (بركاء) و(نخل)، فقصدت (بركاء) فلم أستطع أن أبيع أكثر من النصف أي أربعة بهارات ونصف.. فقلت أقصد (نخل) في اليوم الثالث لأبيع النصف المتبقي، فلما كنت في طريقي إلى (نخل) تلقّاني هذا التاجر (عامر) في (الواسط) لأنه علم بمجيئي بعد أن أخبره صديق له رآني في (بركاء)، واتفق (عامر) معي على أن يشتري البهارات الأربعة والنصف بـ(562.5) قرشا ويتحمل أجر الجمّال، وقال إنه سيعطيني النقود في (نخل) لأنه لم يكن يملك المبلغ حينها، فقدِمْتُ معه (نخل)، فجاء بي على الفور إلى دكّانه وسلمني نقودي كلها (562.5)، وأعطى الجمّال خمسين قرشا..

توقف (زهران) عند هذه النقطة؛ ليلتقط أنفاسه؛ لكن (عامر) تدخّل بالقول:

- الحمد لله.. هل سمعت يا شيخنا الوالي.. لقد اعترف بنفسه بالحقيقة..

- اتركه يلتقط نفسا يا (عامر)..

نطق العبارة الوالي بحزم، فواصل (زهران) حكايته:

- فلما أردت مغادرة (نخل) قلت أشتري لي من السوق بعض الحاجات، فمررتُ بدكان (سعود)..

أشار (زهران) إلى التاجر (سعود) -وقد كان حاضرا بينهم- وهو يواصل حديثه:

- ..فوجدتُ عنده بقية من الأرز اليسير، وخطر في بالي أن أسأله عن قيمة الأرز لعلها تختلف عن (مسكد)، فقال: نعم إن كيلو الأرز عندنا في

(نخل) بربع قرش؛ عندئذ تحسرتُ على بيع الأرز كله لـ(عامر) لأني لم أكن أعلم حقيقة قيمته في سوق (نخل)، ولو أن (عامر) صارحني بقيمته لما كنتُ أبيعه له؛ بل أعرضه على جميع التجار بسعر سوق (نخل)، ولو فعلت ذلك لحصلت على 1125 قرشا بدلا من 562.5 قرشا، فقلت أرجع إلى..

- هذا يكفي!..

أشار الوالي إلى (زهران) ليتوقف عن الكلام، ثم أدار ظهره ليلتفت إلى (عامر) قائلا وهو يحرك سبابته:

- لا يجوز لتاجر أن يتلقى أرباب السلع قبل أن تصل السلع إلى بلده؛ لأنه سَيَغْبِنُ صاحب السلعة في القيمة، وسيحتكر البضاعة لنفسه، فيكون قد أضَرّ طرفين: صاحب الجَلَبِ والمشترين.. قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: ((لا تَلَقَّوِا الْجَلَبَ، فَمَنْ تَلَقَّاهُ فاشترى منه فإذا أتى سيده السُّوقَ فَهُو بالْخَيَار))..

توقف الوالي لحظة خاطفة ليعود فيلتفت إلى (زهران):

- إنّك يا (زهران) مُخَيَّرٌ في أن تخلع البيع فتسترد الأرز أو تُتِمَّ العقد..

التفت الجميع إلى (زهران) منتظرين منه أن يقول كلمته الأخيرة التي ستحسم القضية، فقال بعد تأمُّل:

- إنني أفضّل أن أسترد بضاعتي.. ليس لأني طامع في زيادة الربح؛ بل لأني أخشى أن أتسبب في احتكار الأرز من قبل تاجر واحد.. ولأجل هذا فإني سأبيع الأرز بنفس السعر الذي أعطيته لـ(عامر) لكن سأبيعه لكل التجار..

- بارك الله فيك، هذا من شيم الكرماء.. أسأل الله أن يعوِّضَك عما تنازلت به، وأن يوسِّع رزقك..

قال الوالي كلماته الأخيرة وهو يُهَيِّئ نفسه للانصراف؛ لكن اثنين من

العساكر بلباسيهما المدنيين قطعا عليه طريق خروجه..

- مَا شأن هذا الرجل الذي قَيّدتُماه؟!..

سأل الوالي العسكريين باستغراب، فقال أحدهما:

- هذا لص.. في أثناء انشغال التجار والمتسوقين بالنزاع الذي حَكَمْتَ فيه أنتَ- انتهز هو الفرصة ليسرق جراب بصل من دُكّان (يعقوب) وقد ترك (يعقوب) دكانه لينشغل بالنزاع أيضا..

- احتفظا به في سجن الحصن..

دفع العسكريان الرجل أمامهما، وهو يسخط على حظه العاثر الذي بلاه بمثل هذا الوالي الحذر المتفطِّن لوسائل اللصوص، الذي لا يكاد يَفُوتُه شيء من دواعي الاحتراز..

مقارعة العقول..

- توقف!..

حاول (خميس) التقدم بالفرس بضعة خطوات نحو ضفة وادي (نخل) في المنطقة القريبة من الحصن فإذا (سلام) يصرخ بالكلمة، فأجابه (خميس):

- ماذا عندك؟!

سأل (خميس) في دهشة وهو يشد إليه لجام الفرس ليوقفه؛ لكن (سلام) لم يُجِبه؛ بل ترجّل سريعا حتى قبل أن يقف الفرس تماما، ومشى أمتارا حتى بلغ الضفة، فانبرى يفحص بعض آثار الحوافر التي كانت موجودة فيها..

كانت الطريق التي يسلكانها هي الطريق نفسها التي سلكها (خميس) و(الوالي) البارحة ذهابا وإيابا..

عثر (سلام) على آثار فرسين في الضفة مرا البارحة عليها، وكانت صورة كل حافر في الضفة الطينية تشير إلى أن الفرسين كانا قادمين من (الصاروج) إلى الحصن..

بحث (سلام) عن قطعة خشب فلم يجد إلا (زَوْرة) ملقاة قرب الوادي، فأخذها وقطع عمودا صغيرا من ساقها الخشبي الجاف لا يزيد عن عشرين سنتيمترا، ثم أدخل العمود في الْحُفَر الصغيرة التي خلفتْها حوافر الفرسين، وقاس عُمْق الْحُفَر، ثم خاض الوادي إلى الضفة الأخرى ليقيس آثار حوافر أخرى كان اتجاهها العكسي يدل على أنها قادمة من الحصن إلى (الصاروج)..

ظل (خميس) في مكانه بعيدا عن الضفة حتى رجع إليه سلام فقال له:

- يمكننا الآن أن نذهب.. لكن سنسلك طريقا أخرى تعبر بنا الوادي غير

هذه الطريق التي أمامنا..

لم يفهم (خميس) مغزى كل ذلك؛ لكنه لم يجد مانعا من أن تزيد طريقهما إلى الحصن بضعة أذرع، فوافقه واتجها إلى الحصن من طريق قريبة تعبر الوادي أيضا، ثم دخلا الحصن قاصدين مكتب الوالي مباشرة..

كان في المكتب أحد الشُّوَّان، فانتظر الاثنان في غرفة الاستقبال، ثم استأذن (سلام) من (خميس) ليقضي بعض مآربه في سوق (نخل) إلى أن ينتهي الشَّوَاوِيْ من موضوعه..

فرِغ الشَّوَاوِيْ بعد ساعة من عرض موضوعه على الوالي، وانصرف عن الحصن، وكان (سلام) قد عاد من السوق..

استأذن (خميس) من الوالي ليدخل هو و(سلام) إلى المكتب..

كانت الوقتُ الزوالَ إذ نزلت الشمس قليلا من عليائها في كَبِد السماء..

دعا الشيخ الاثنين إلى أن يَفْكَهَا قليلا ليذهب عنهم النَّصَب؛ على حين بقي هو على كرسيِّه..

- هل القفر عسير إلى هذا الحد الذي جعلك تتأخر كثيرا؟!..

ابتدر الوالي (سلام) بالسؤال بعد أن انتهى هذا الأخير من أكله..

- صعوبة القفر أو سهولته تختلف بحسب ظروف الحادثة..

أجاب (سلام) وهو يمسح شفتيه ببعض الماء المجلوب في طَسْت صغير..

- أفهم من هذا أن هذه المهمة التي كلفتك بها كانت من النوع العسير، فاحتاجت إلى هذا الوقت الطويل؟!..

تفوه بالسؤال الوالي وهو يسترق النظرات إلى (سلام)..

- قد كانت المهمة في غاية الصعوبة شيخي الوالي، وربما تكون النتيجة غير مرضية لمقامكم..

أخفى الوالي شعوره بنشوة الانتصار في هذا التحدي بين العقول المدبّرة،

فقال في وهو يلوي شفتيه كما لو كان الأمر محسوما:

- ليس من العيب أن يخفق الإنسان حينا في حياته، فمن الصعب أن تجد إنسانا ناجحا في كل شيء وفي كل حين..

- هذا صحيح مولاي.. لكن الإخفاق حين يتعلق به مستقبل المرء فإنه يكون أسوأ عاقبة وأكثر إيلاما لصاحبه!..

- معك حق!..

نطق بالجملة الأخيرة الوالي، ثم صمت وهو يتظاهر بالانشغال بمداعبة أصابعه..وواصل صمته كما لو أنه لم يعد يهتم بمعرفة النتيجة المحسومة لصالحه..

- أظن أنني سأمتنع عن تقديم نتيجة القفر هذا اليوم!..

- لماذا؟..

قالها الوالي مظهرا تعجبه، ومخفيا رغبته العارمة في اعتراف (سلام) بالهزيمة؛ لكن (سلام) أراد أن يماطله فقال:

- أخشى لو قلت النتيجة ألا يصدقني أحد بعد اليوم!..

- لماذا كل هذا التشاؤم؟!.. هيا أخبرني بما لديك..

بدا الوالي يظهر ضيقه من تلكّأ (سلام)؛ لكن هذا الأخير لم يبالِ به، فقال مُمْعِنا في المماطلة:

- أنا كلي رجاء بأن يعذرني شيخي الوالي من الإدلاء بالنتيجة!..

خرج الوالي عن طوعه هذه المرة، ولم يطاوعه التريُّث، فأظهر سُخْطَه قائلا:

- لماذا يا رجل كل هذا التردد؟!.. هيا قل لنا وأرحنا..

لم يُلْقِ (سلام) أي اهتمام بسخط الوالي؛ بل أصر على الاحتراز من إبداء النتيجة وهو يقول:

- إن كان الوالي مصرا على معرفة نهاية الفحص فأنا أرجو منه أن يعطيني الأمان..

زمجر الوالي في نفسه غاضِبا من هذا المطلب السخيف ولم يكن ثمة داع إليه، فقال:

- ويحك يا رجل!.. ألا تتكلم فتخبرنا بما نريد؟!.. وهل يعقل أن نؤذيك لمجرد أنك قلت وجهة نظرك في اختبار قدمناه إليك؟!..

- هل أفهم من هذا أن الشيخ سيقبل بأي نتيجة للقفر الذي أدّيته؛ حتى لو اتهمتُ قائد العَسَسِ نفسَه؟!..

كاد أن يطيش غضب الوالي هذه المرة؛ وهو يرد على سؤال (سلام) الأكثر سذاجة من سابقه:

- يا أخي ألق التهمة على أي واحد تريد.. حتى لو ألقيتها علَيَّ أنا شخصيا!!..

- إذن فأنت الذي أخذت الأقْناء شيخي!..

قدّم (سلام) نتيجته بصوت مرتفع؛ كما لو أنه يوجه التهمة إلى سارق حقيقي:

- كيف تجرؤ على ذلك؟!..

ألقى (خميس) العبارة وهو يجيد تمثيل دور المستنكر؛ على حين أكمل الوالي التمثيل حين قال وهو يفقع ظهره مستنكرا:

- كيف تتهمني بالسرقة يا رجل؟!..

- لقد أخذت الأقْناء ومعك أحد العساكر..

أسرع (سلام) بالإجابة دون تفصيل، فقال الوالي ساخطا على هذه النتيجة التي خرجت عبثا دون حُجّة:

- لا يمكنك أن تتهم أحدا إلا بدليل!..

- الدليل موجود..

أصر (سلام) على معارضة الوالي في صورة تَحَدٍّ دون أي مراعاة لمكانته، فقال الوالي مبديا إصراره هو الآخر:

- وأين هو؟!..

عند هذه اللحظة التي شعر فيها (سلام) بأن الوالي قد استبد به الغضب، وطاش صوابه، وفقد تدبيره- بدأ يقدم تحليله للقضية بالتفصيل:

- بدأتُ تتبع الخيط من أشجار الموز.. فعلى الرغم من أن تراب (وَقْف الصاروج) كان مملوءا بآثار الأقدام التي لا تنقطع عن مرورها عليه؛ فإن الآثار التي تكررت كثيرا تحت أشجار الموز المسروقات كانت آثارا لنعل وحذاء.. فأما النعل فهي نعل الوالي التي طالما رأيت آثارها في أرض الحصن وخارج بوابته وفي السوق، فحفظتها عن ظهر قلب، وأما الحذاء فهو حذاء العساكر؛ لأن حذاءهم ليس له إلا نقش موحد يعرفه الجميع، وقد رأيته يتردد في طرقات الحصن، ورأيته لدى (خميس) في تجوالي معه.. لا شك في أنكم ستقولون إن وجود آثار الوالي وأحد عساكره تحت أشجار الموز من البدهي؛ لأنهما كانا هناك البارحة؛ لكن هذه البداهة ستزول حين نعلم أن آثار النعل والحذاء كانت غائرة في عدة بقع تحت أشجار الموز؛ وكانت هذه الآثار المتحفرة للنعل والحذاء ناتجة عن محاولة كل منهما لنزع الأقْناء من الأشجار مما تسبب في ضغط نعل الوالي وحذاء العسكري على التراب وغَوْرِه..

توقف (سلام) عن الكلام على حين كان الوالي لا يزال على غضبه وسخطه، وانتظر (سلام) طويلا حتى يظل الغضب محدقا بالوالي؛ إلى أن اضطر الوالي إلى أن يعارضه فيما قاله حينما لم يجد أي تفصيل آخر يقنعه بالتحليل، فقال وعروق دمه تفور:

- لكن كون آثار نعلي وحذاء أحد العساكر غائرة في التراب أسفل أشجار الموز ليس دليلا قاطعا على أننا نحن الذين أخذنا الأقْناء.. لقد حاولتُ أنا و(العسكري) الذي معي أن نفحص -بوساطة سراج حملناه معنا- أشجار الموز جيدا، فكنا نرفع أكعاب أرجلنا لكي نزداد طولا فننظر في أصول الأقْناء حيث كان القطع منها، وكررنا الفحص وجُلنا حول الأشجار لعلنا نحصل على أي أدلة أو آثار يمكن أن تهدينا إلى شيء.. وكان لا بد لهذه المحاولات في فحص أشجار الموز من أن تتسبب في أن تغور نعلي وحذاء صاحبي في الأرض..

انتظر (سلام) الوالي حتى فرغ من الدفاع عن نفسه، فقال مضيفا وملامح وجهه تحمل الاستفزاز من جديد:

- قد قلتُ أنا في نفسي الشيء ذاته الذي قلته أنت الآن يا شيخي الوالي، ولم أكن متأكدا من معرفة آخِذ الأقْناء؛ وأدركتُ أن من أخذ الأقْناء كان محنّكا في تضليلي؛ لولا أنه ارتكب خطأ واحدا!..

فتح الوالي و(خميس) عينيهما جيدا هذه المرة، واعتدل الوالي في جِلْسَته ليعتصر ذاكرته وهو يراجع خطته ولم يكن يشك في أنه أحكمها جيدا، فلم يستطع أن يعثر على الثغرة التي تدور بخلد (سلام)..

ترك (سلام) الوالي على راحته يفكر؛ حتى انتبه هذا الأخير إلى أن (سلام) قد تعمّد أن يشغله بالتفكير ليستدل بانشغاله على أنه هو مَن خطط للسرقة المزعومة..

تنحنح الوالي، وحكّ شعره متحرجا من وقوعه في هذا الخطأ، وعاد إلى نبرة سخطه وتشكيكه في نتيجة تقرير (سلام):

- أكمل.. أكمل فكرتك التي لم نقتنع بها..

استجاب سلام لمطلبه، فأردف وهو يواصل استفزازه:

-كانت الطريق التي سلكها الوالي والعسكري من الحصن إلى (الصاروج)

قاسية يابسة، فلم يكن فيها من الآثار ما يثير انتباهي، وقد خرجت من الحصن إلى (الصاروج) مع (خميس) ولم يكن من الممكن أن يدور بخلدي أن الوالي هو الذي دبر حيلة الاستحواذ على الأقْناء، فكنتُ لا أهتم بفحص الآثار من القلعة إلى (الصاروج)؛ لكنني حين بدأت الشكوك تراودني في (الصاروج) في آثار نعل الوالي وحذاء العسكري كنت معتنيا في طريق عودتي بأن أجد أي خيط أو ثغرة تؤكد شكوكي..

توقف (سلام) مرة أخرى؛ ليرفع من توتر الرجلين وانشغالهما بمعرفة الثغرة التي ارتكباها، ثم أكمل:

- إن الوالي لم يستطع أن يأمر (خميس) بأن يتجنب إحضاري من الطريق نفسها التي سلكاها إلى (الصاروج) زيادة في تضليلي وصرف نظري عن اقتفاء أثرهما؛ لأنه لو فعل ذلك فإنه كان سيثير شكوكي؛ وكنت حينئذ سأسأل نفسي: ما الذي يدفع (خميس) إلى أن يحملني في طريق بعيدة غير الطريق المباشرة من الحصن إلى (الصاروج)؟!.. ومن حسن حظي أنْ كانت هذه الطريق المباشرة هي مفتاح الحل..

صمت (سلام) مرة ثالثة؛ ليتعمد تشتيت تفكير الوالي، وصرف كامل تفكيره إلى ما يثيره من حديث عن الخطأ الذي ارتكبه، ثم واصل (سلام) حديثه من جديد:

- فكرتُ في أن وَزْنَ رجل فوق فرس يختلف عن وزن رجل معه قِنْوانِ اثنانِ فوق الفرس نفسه، وهذا التفاوت بين الوزنَين لا يظهر بوضوح فوق الأرض القاسية، وإنما يظهر فوق أرض طينية أو رملية، وقد وجدْتُ أن خير أرض طينية ستكون قرب الوادي..

تنفس (سلام) الصعداء ببرود شديد رفع من ضغط الوالي وحنقه عليه، ثم أكمل أيضا:

- إن الوالي والعسكري حينما انطلقا البارحة من الحصن إلى (الصاروج) مرّا بضفة الوادي الطينية، وكان وزنهما ساعتئذ أخف، فغارت حوافر فرسيهما قليلا؛ لكنهما لما عادا من (الصاروج) إلى الضفة محمَّلَيْنِ بأربعة أقْناء غارت حوافر الفرسين أكثر..

انتهى (سلام) من تخطيط الحادث، ووقف (خميس) مبهورا بقدرته على التحليل، وانتظر الاثنان أن يُقَلِّد الوالي وسام المحقِّق -أو القافر- من الدرجة الأولى لـ(سلام)؛ لكن الوالي لم يتحرك قيد أنملة، ولم ينبس بكلمة؛ بل ظل جامدا دقيقة كاملة قبل أن يقوم أخيرا من كرسيه قائلا:

- إن كل ما قلته كان يمكن أن يقبل به أي إنسان فطن، ويظن أنك بذلت مجهودا رائعا في تتبع الأثر؛ لولا شيء واحد..

خُيِّل إلى (خميس) أن شعر (سلام) وقف تماما، وأن كل خلية في جسده تعطلت عن أداء وظائفها؛ وهما ينتظران الجزء الأخير من الاختبار..

ذلك الجزء الذي أخّره الوالي عَمْدا ليقضي على أي شكوك تساوره في قدرة (سلام) على القفر..

وهو الجزء نفسه الذي سيحسم هذا التحدي الطويل، وسيتوقف عليه مستقبل (سلام)..

- إننا ننكر أننا حملنا أربعة أقْناء في طريق عودتنا، وإنما وجدنا في طريق عودتنا من الصاروج رَجُلَيْن من أصحابنا قادمين من السفر، فحملناهما معنا على ظهر الفرسَيْنِ، وإذا كنت تشك في صدق ما نقوله وتصر على اتهامنا بأخذ الأقْناء؛ فأين هذه الأقْناء التي تزعم أنها في حوزتنا؟!..

ألقى الوالي بأصعب طلبات الاختبار على (سلام)، وأخذ (خميس) يحدق في وجه (سلام) مشفقا عليه؛ لكن (سلام) تناول الكيس الذي يحتفظ فيه بأجزاء اقتطعها من أصول الأقْناء، وهو يقول:

- هيا بنا..

أشار (سلام) إلى الوالي و(خميس) ليتبعاه..

توجه الثلاثة إلى بوابة الحصن، ومنها بدأ (سلام) يدقق في الآثار الموجودة عند البوابة، ثم مضى يتتبع الآثار والوالي و(خميس) يتبعانه، والعساكر في الحصن يحدّقون في هذا المشهد..

وصل الثلاثة إلى البخار، ثم انطلقوا خلف (سلام) مرة أخرى لكن إلى غرفة نوم الوالي، وقال (سلام) بعد تدقيق دام قرابة الدقيقتين:

- إن كان شيخنا يسمح لنا فإنا نطلب فتح باب الغرفة..

- لكنها غرفة نومي يا رجل، وليست بخّارا!..

- لو سمحتَ شيخي..

- إن بها رسائل سرية، وأوراقا ومكاتبات خاصة لا يمكن أن يطلع عليها أحد..

- أدري يا شيخي؛ لكنك تدري أني لا أعرف القراءة، فلا أفهم شيئا من تلك الأوراق، ويمكنك أن تصحبني وحدك إلى الداخل لتطمئن إلى أني لا أدس في جيبي أي شيء منها، ولا يدخل أحدٌ غيرنا لئلا يأخذ شيئا أيضا..

تريّث الوالي في التفكير قليلا قبل أن يمط شفتيه مستنكرا:

- إذا كنت تظنّ أنك ستعثر على الأقْناء هنا، فأنت واهم..

- لا بأس يا شيخي.. اعتبرها آخر فرصة لي في هذا الاختبار..

- تفضل..

أشار الوالي إلى (سلام) بالدخول، ودخل معه، وأخذ ينبش في الأماكن التي يتوقعها، فلم يجد شيئا، ثم التفت إلى اثنين من (المناديس)، فقال للشيخ:

- هل يمكن للشيخ أن يسمح لنا بفتحهما؟..

- لا بأس..

فتح الوالي المندوسين المقفولين بمفتاحين كانا في جيبه، فإذا بأقْناء الموز داخلهما..

أخرج (سلام) الأقْناء من المندوس واحدا واحدا، ووضعها خارج الغرفة أمام أعين العساكر..

التفت (سلام) إلى الوالي وقد صار لا يقدر على مجادلة (سلام) في شيء، وقال:

- لا أسألك شيخي الوالي إن كانت هذه الأقْناء الأربعة هي نفس الأقْناء التي أُخِذَت من (الصاروج)؛ لأني أتوقع أنك لا تسعفني في الاعتراف بالنتيجة إلى آخر لحظة، ولأجل هذا تعمدتُ -وأنا في (الصاروج) مع (خميس)- أن أقتطع جزءا من الأصل الذي يتعلق به كل قِنْو، وها هي الأصول معي في الكيس..

أخرج (سلام) أصول الأقْناء، وأمام أعين الرجلين أخذ يلصق كل أصل بِقِنْوه المسروق، كما لو كانا في الأصل قطعة واحدة قُطِعَت نصفين ثُم أعيد ضَمّ كل نصف إلى نصفه الآخر الْمُكَمِّل للقطعة.

وأمام هذا البرهان الأخير القاطع لم يستطع الوالي إلا أن يرفع راية الاستسلام، ويسلِّم بعبقرية (سلام)، ويضفي عليه اللقب الكبير الذي لم يستحقه أحد في تاريخ البلدة!!..

لقب «القافر»!..

المحقق الكبير..

لص الشياه..

انخفضت حرارة الشمس قليلا بعد أن بلغ الزمانُ منتصف العصر، وساعدت الرياح الخفيفة -وقد هبّت على أشجار النخيل السامقة وسط العيون الكثيرة المتفرقة في (عِلاية نخل)- على تلطيف الهواء في هذا الصيف القائض..

وتفرق الناس بين أشغالهم في المزارع، وتجمعاتهم في المجالس، ونزهتهم على ضفاف الوادي..

وفجأة بدأ طابور من الناس يتشكل في تزايد، منطلق من محلة (الرِّسّة) خلف اثنين من العساكر يتقدمهما «القافر»..

انتظم الطابور خلف القافر وهو يمضي بمحاذاة ضفاف الوادي -الذي يجري صوب الشمال- ثم انحرف (سلام) بغتة إلى اليسار في زاوية حادة نحو الغرب ليخترق بعض المزارع..

كان الوالي قد رغب في أن يضع القافر في اختبار لتقصي حقائق سرقة حقيقية هذه المرة، ولأجل أن الأمر مستعجل، وخوفا من اندثار آثار الجريمة التي حدثت البارحة؛ فإن الوالي بعد بلوغ الخبر إياه قبيل الظهيرة- استسمح (سلام) بأن يبدأ بالقفر في العصر؛ على الرغم من أنه لم يرتح طويلا بعد الاختبار الأول الطويل الذي خاضه طوال الصباح، فقبل (سلام) بالشروع فورا في وظيفته تقديرا منه لشخص الوالي..

ظل القافر -والطابور يتبعه وهو يكبر- في خط غربي متعرج بحسب طرق المشي الممهدة وسط الحقول..

وعلى الرغم من أن منطقة (العلاية) لا تزيد عن ثلاثة كيلو مترات مربعة تقريبا؛ فإن القافر قضى نحو نصف ساعة وهو يدقق في أي علامة في الطرق

التي يسلكها قبل أن يتجاوز الشرجة التي تلتقي الواديَ، فيصل (سلام) إلى الضفة الثانية المسماة (حَضِين) التي تقع غرب الشرجة..

استمر القافر في المسح والتدقيق حتى وقف قرب موضع على بعد ثلاثة أمتار من عريش موجود في إحدى المزارع..

كان صاحب العريش غائبا عن عريشه؛ إذ كان يحتسي القهوة في سبلة (الغَرِيض)..

- هنا.. تحت هذا التراب..

أشار (سلام) إلى موضع أسفل قدميه بدا أنه كان في الأصل محفورا ثُمّ رُدِم بالتراب من جديد..

طلب (سلام) من العسكرِيَّيْنِ أن يُحْضِرا مِجْرافا..

بدأ العسكريان يحفران بمشورة (سلام) حتى تصاعدت في المكان رائحة نتنة..

- حَسْبُكما..

طلب (سلام) من العسكريين التوقف، ثم أخذ طرفا من مصره فلفّه حول فمه وأنفه ليصنع منه كِمّامة، وبدأ يوسع دائرة الحفر من الجوانب على مَهَل..

ظهرت أحشاء متعفنة، وبعض العظام، ورأسان، وشعر مع جلده، ومَصِيران، وأعضاء أخرى عدا اللحم وما اتصل باللحم من عظام..

كانت الأعضاء التي استخرجها (سلام) تخصان شاتين..

قدّم (سلام) ما بقي من قرون الرأسين وشعر الجلدين وسائر الأجزاء المتعفنة إلى الشَّوَاوِيْ (نصير) قائلا:

- انظر في هذه الأعضاء.. هل تجد فيها علامات تخص شاتَيْك؟..

قلّب الشَّيْبَةُ (نصير) الأعضاءَ، ثم قال وهو يمسك بالقرون:

- نعم.. تعودتُ أن أميز قرون شياهي بطلاء فوق الرأس وحول القرنين من أسفلهما، وهذا هو الطلاء.. لا تزال بعض آثاره باقية..

ثم رفع جلد إحدى الشاتين وهو يمسكه من شعرها قائلا:

- وهذه الشاة كانت موسومة في فخذها، وأرى أن الوسم لا يزال ظاهرا في الفخذ إذ ينعدم الشعر في هذا المكان..

- هل أنت متيقِّن مما تقول؟..

سأله (سلام) بلهجة تشير إلى تحذيره من اتهام أي شخص، فأجاب وهو يَحُكّ أحَدَ فَوْدَيْهِ:

- نعم.. حتى إن الورم الذي كان في خد إحدى الشاتين لا يزال بارزا في هذه الجمجمة..

- إذن أنت واثق من أن الشاتين لك..

- بالطبع.. انظر إلى هذا القرن المكسور أيضا، هو نفسه القرن الذي أعرفه..

قالها الرجل بلا تردد والناس تنظر إليه في تلهف لمعرفة السارق..

- الحمد لله..

نطق بالحمدلة (سلام)، وأسرع أحد العساكر يقول:

- لمن هذا العريش؟

- إنه لـ(حمدان بن سالوم)..

أجاب أحد الحضور..

- إن (حمدان) هذا كان لصا معروفا قبل عشر سنين..

نطق بالعبارة رجل آخر من المشاهدين في خُفُوت وهو يتحدث إلى شخص بجواره..

- وأين هو الآن؟

- رأيته قبل قليل في (الغريض).. أظنه هناك.. في السبلة..

لم يكد يدلي بالخبر الأخير شخص آخر من المتفرّجين؛ حتى انطلق الطابور إلى (الغريض)؛ لكنه كان هذه المرة خلف العسكرِيَّيْنِ..

مجادلة..

- شيخنا المحترم.. إن عشيرة (حمدان بن سالوم) تستأذن لمقابلتك..
تحدث أحد العساكر وهو يقف أمام الوالي بعد أن سمح له بالدخول:
- هل أدخلتموهم كلهم إلى الحصن؟!..
قالها الوالي باستغراب وهو يترك اتكاءه على الكرسي..
- كلا شيخنا.. فنحن لا ننسى القواعد الأمنية.. إنهم خارج الحصن عند البوابة الرئيسية..
- هذا أحسن!.. لا تسمحوا لهم بالدخول جميعا، وإنما اطلبوا منهم أن ينتدبوا اثنين من أعيانهم ممن حضروا معهم ليمثّلوا الجميع..
- أمرك شيخي..
أدار العسكري ظهره ليغادر المكان؛ لكن الوالي استوقفه:
- اسمع يا (سليمان)..
- نعم شيخي..
نطق بالعبارة وهو يدير وجهه من جديد إلى الوالي..
- أدْخِلْ الرجلينِ إلى الحصن؛ لكن اطلب منهما المكوث في غرفة الاستقبال، واطلب من (عيسى) أن يأتيني بـ(حمدان) من الحبس قبل أن يأتي الرجلان..
- إن شاء الله شيخي..
غادر العسكري، وبعد قليل حضر (عيسى) ومعه السجين..
- كيف حالك يا (حمدان)؟..

سأل الوالي (حمدان) في جدية تخلو من القسوة وتبتعد عن الامتهان..

- أنا أحلف بالله أني لست سارقا..

رد عليه (حمدان) وقد احمرّت عيناه من الغضب..

- لكننا لم نحكم عليك بالسرقة حتى الآن، وإلا وجدت يدك في غير موضعها!..

نطق الوالي العبارة بصرامة هذه المرة قبل أن يخرس (حمدان) خوفا من أن ينفذ الوالي حكمه، فأضاف الوالي:

- إن بعض أقاربك وأهل عشيرتك سيأتون بعد قليل.. قد سمحت لهم بالدخول إلى هنا ليكونوا طرف دفاع، وينبغي ألا تأخذك حَمِيَّة القبيلة فتتكئ على دفاعهم.. وإنما عليك أن تثبت لنا براءتك بالأدلة الدامغة؛ وإلا فإننا مضطرون إلى الحكم عليك بالسرقة إن ثبت تورطك فيها..

- شيخنا المحترم.. الرجلان في غرفة الاستقبال، فهل أحضرهما؟..

ألقى الطلب العسكري (سليمان) وهو بين مصراعَيِ باب المكتب، فأجابه الوالي:

- نعم.. أحضرهما..

دلف الرجلان إلى المكتب فانكبا على (حمدان)، يعانقانه، ويسألانه عن حاله وصحته..

تركهم الوالي احتراما لمشاعر القربى بينهم، قبل أن يقول:

- فليتفضل الجميع بالجلوس..

قعد الرجلان واتكأا على نمرقتين على يمين الغرفة؛ على حين جثا (حمدان) مقابلهما ولم يتكئ على أي نمرقة في يسار الغرفة بسبب القيد الذي يجمع يديه خلف ظهره..

- تفضلا أيها الشيخان.. قد طلبتما مقابلتي..

وجه الوالي كلامه نحو الرجلين، فأخذ كلاهما ينظر في وجه صاحبه قبل أن يشير أحدهما إلى الآخر بالحديث أولا:

- أنا الشايب (مرزوق)، وهذا الشايب (ناصر).. ونحن جئنا إلى شيخنا الوالي في الحقيقة لنطلب منه السماحة والعفو..

ترك الوالي اتكاءه وهو يشبك أصابع يديه قبل أن يقول:

- نحن نرحب بكما، ونقدر لكما مشاعركما، ولا نحب أن نؤذي أحدا من أبناء قبيلتكم.. لكننا أيضا نراعي طرفا آخر متضررا هو الشايب (نصير) الذي سرقت منه الشاتان..

- نحن نعلم أن من حق الشايب (نصير) أن يتظلم ليقتص من السارق؛ لكن (حمدان) ليس هو السارق..

- ومن السارق إذن؟..

- نحن لا نعرف من هو السارق؛ لكننا متأكدون أن (حمدان) رجل عاقل، ولا يفعل هذا الفعل الشين..

- نحن نريد أن نصدقكم؛ لكننا لا نملك دليلا على براءته؛ بل بالعكس، فإن كل الأدلة ضده..

- وما هذه الأدلة التي هي ضدي؟.. هاتها!..

تدخل (حمدان) في لهجة أقرب إلى الشدة بعد أن أدرك أن الشيخين الكبيرين في السن لا يملكان منطقا لمحاجّة الوالي:

- لقد وجدنا بقايا الشاتين المذبوحتين قرب عريشك..

- ولكن يجوز أن اللصوص تعمدوا دفن البقايا قرب عريشي..

رد (حمدان) على الفور كما لو أنه كان معدا نفسه لهذه المحاكمة؛ على حين ظل الشيخان ساكتين بعد أن رضيا أن يتحولا من الدفاع إلى الجمهور..

- لو كان عريشك هو أقرب بيت لمحلة (الرِسَّة) التي سرقت منها الشاتان؛

لقلنا إن اللصوص أرادوا أن يتخلصوا من بقايا الشاتين فدفنوها في أقرب بيت وجدوه بعد محلة (الرسة)؛ لأن اللصوص لا يهمهم إن ألقوا التهمة على أي أحد، المهم أن ينجوا هم من التهمة..

- ولكن.. قد يكون اللصوص من الذين يسكنون في محلة بالقرب من عريشي، فلما فرغوا من سلخ الشاتين وجدوا أن الوقت لا يكفيهم للتخلص من الشاتين في مكان بعيد، فاختاروا أقرب موضع للتخلص من البقايا، وكان هذا الموضع هو المزرعة التي بجانب عريشي..

- ولماذا لا نقول إنك يا (حمدان) لم تجد الوقت الكافي للتخلص من البقايا في مكان بعيد، فاستعجلت ودفنتها قرب عريشك لعلمك أن البقايا ما دامت تحت الأرض فلا يستطيع أحد رؤيتها..

صمت حمدان وهو محتار فيما يجيب أمام هذا السيل المتدفق من حِجَاج الوالي الذي لم يتلكأ في الرد على كل ما يطرحه (حمدان) بكل منطق وبكل سهولة..

- يا شيخنا الجليل.. (حمدان) هذا ما سارق.. صدقنا.. هذا (حمدان) إنسان طيب ومُتَدَيّن!..

تحدث الشايب (ناصر) هذه المرة بعبارة تميل إلى العاطفة، ولا تعترف بالأدلة والحجج..

- لكنني وجدت في القضايا التي سلّمني إياها الوالي الذي سبقني إلى ولاية (نخل)- أن (حمدان) هذا قد وقع في قضية في شهر ذي الحجة قبل اثنتي عشرة سنة..

نكس (حمدان) رأسه وهو يستعيد ذكرى اقتحامه لإحدى بيوت محلة (الغريض)؛ إذ كان في حالة السكر؛ مما حدا بأصحاب البيت إلى أن يقيدوه ويسلموه لعسكر الوالي متهمين إياه بمحاولة السرقة، وتبين بعد المحاكمة أنه

لم يتعمد اقتحام البيت بل كان -بسبب سكره- يظنه بيت والده..

- لكن يا شيخ.. نحن منذ أن دخلنا معك وأنت تقول «اللصوص» و»اللصوص»، و(حمدان) هذا وحده، فأين هؤلاء اللصوص..

كان هذا السؤال ذكيا وغير متوقع من الشايب (مرزوق) وقد أخذته الحمية وهو يرى (حمدان) مصرا على براءته على حين يسعى الوالي إلى إلباسه ثوب المهانة والسرقة..

لكن حتى هذا السؤال لم يستغرق سوى ثانية واحدة ليقدم الوالي إجابته قائلا وهو يصرف نظره عن (مرزوق) ويوجه كلامه إلى (حمدان) الغارق في الحرج:

- هذا السؤال ينبغي أن يجيب عنه حمدان، فهو أدرى بأصحابه!.. أين باقي اللصوص الذين أعانوك على السرقة يا (حمدان)؟..

- أنا لست سارقا!..

صرخ (حمدان) بالعبارة في سرعة البرق؛ وقد امتلأ سخطا على الوالي المصر على إلصاق التهمة به..

صمت الوالي بحكمته نصف دقيقة ليزول التوتر فتهدأ النفوس قليلا، ثم قال بلهجة حملت الهدوء والبشارة معا إلى نفس (حمدان):

- إني أسأل الله ألا تكون سارقا..

اطمأن الوالي أن نفوس الحاضرين قد سكنت، فنادى العسكري (عيسى)، فلما حضر قال له آمرا:

- خذ الشيخين إلى غرفة الاستقبال، وأكرمهما بالضيافة.. ثم عُد إلى هنا..

ودّع الشيخان (حمدان)، ودَعَوَا له بالفرج العاجل، ثم توسلا إلى الشيخ بأن يحسن إليه ويتمهل في أمره؛ قبل أن ينصرفا بصحبة (عيسى)..

عاد (عيسى) إلى الشيخ، فقال له:

- أَرْجِعْ (حمدان) إلى محبسه..

انصرف (حمدان) وعَيْنَا الوالي تتبعانه حتى غاب خلف الباب، وبقي الوالي على كرسيه يفكر في حل هذه القضية المعضلة، فقد كانت حنكته تقتضي أن يُبْقِيَ على (حمدان) في السجن حتى ينهار ويعترف، فهذا شأن اللصوص عادة حينما يحبسون طويلا، فيذوقون مرارة السجن وعذاب الوَحْشَة، ثم يحاصرون بالأدلة حتى ييأسوا ويعلموا أن الوالي مصر على موقفه، وأن الحكم واقع لا محالة، فيخنعوا ويقروا بما فعلوا، فإيقاع الحكم في أقرب وقت خير من إيقاعه بعد عذاب طويل في الحبس!..

العملية الكبرى..

لم يلبث اللص (الذي حرر قفل البوابة الشرقية) أن شهق في نفس اللحظة التي شهق فيها زميله (الذي حرر البوابة الجنوبية) حتى انطلق الأول لينضم إلى الثاني ليكونا كلاهما أسفل البوابة الجنوبية..

وفي التوقيت ذاته تحرك اللص الذي فوق سطح البوابة الشرقية ليذهب إلى سطح البوابة الشمالية الرئيسية ليستطلع ما سيقوم به الحارسان..

انتفض الحارسان من هول الشهقة التي سمعاها، وتحفّزا على البديهة العسكرية بانتزاع سلاحيهما فورا وجَعْلِهما في وضع الاستعداد؛ لكنهما لم يستطيعا أن يحددا اتجاها معينا ليسيرا فيه، فقد اختلط عليهما مصدر الصوت..

- من أين أتى هذا الصوت؟!..

قال أحدهما -وكان أنحف من صاحبه لكنه أكثر نباهة منه- فأجابه الثاني:

- لا أدري!.. يخيل إلي تارة أنه من البوابة الجنوبية، ويخيل إلي ثانية أنه من البوابة الشرقية!..

- لا بأس.. اجلس أنت هنا وسأدور أنا حول السوق لأتاكد بنفسي..

- ولماذا لا تذهب أنت إلى البوابة الجنوبية وأذهب أنا إلى الجنوبية؟! أو نذهب سويا إلى إحدى البوابتين؟!..

- ليس من مصلحتنا أن نتأخر في الدوران سويا لنصل إلى بوابة واحدة فقد يكون ما حدث في بوابة أخرى فيهرب الفاعل بفعلته.. اذهب أنت إلى البوابة الشرقية وسأتجه أنا إلى البوابة الجنوبية، فمن لم يجد شيئا في بوابته فليتجه إلى بوابة صاحبه..

- تمام!..

لم يكد الاثنان يتحركان في الاتجاهين حتى أبصرهما اللص الذي كان يراقبهما من فوق سطح البوابة الرئيسية، وعلى الحال أطلق شعاع مصباحه -في إشارة متفق عليها- باتجاه اللص الثاني الذي كان فوق سطح البوابة الجنوبية..

كان كل من اللصين اللذين في السطح يحمل مصباحا يدويا، وكان جميعهم قد اتفقوا على عدة إشارات، ولكل إشارة معنى محدد يشير إلى نوع حركة الحارسين، وتعاهدوا على ألا يرى الحارسان هذه الإشارات ولا يعرفا أمر المصباحين أبدا..

كانت الإشارة التي أطلقها اللص نحو زميله تعني أن الحارسين قد انفصلا، واتجه كل واحد إلى بوابة مختلفة..

وعلى الفور أطلق اللص المتلقي للإشارة نفس الإشارة نحو زميليه الماكثين أسفله عند البوابة الجنوبية، فانطلق أحدهما يعدو نحو الشمال ليختبئ في صرح (مسجد عين السوق) الذي لا يبعد من البوابة الجنوبية سوى مائة متر..

وصل كل من الحارسين إلى البوابتين في وقت واحد تقريبا، بسبب اتحاد المسافتين؛ لكن الحارس الذي بلغ البوابة الشرقية لم يجد أحدا فيها، فأخذ يدقق حوله ثم يفحص ما جرى في الأبواب..

وأما الحارس الثاني فوصل إلى البوابة الجنوبية بحذر فإذا بشخص مُسْتَلْقٍ على الأرضِ لا يحرك ساكنا..

- قُمْ مكانك!.. وإلا أطلقت عليك النار!..

صرخ بالعبارة الحارس في اتجاه المستلقي؛ لكن المستلقي ظل على سكينته التامة، فلم يكن من المنطقي أن يطلق الرصاص على شخص قد يكون مجنيا عليه مصابا أو فاقدا للوعي، ولاسيما أنه هو وزميله سمعا بصرخته..

قرر الحارس أن يفحص المستلقي ليطلع على نوع إصابته ويطمئن من بقائه على قيد الحياة؛ لكنه لم يكد ينحني حتى قفز على ظهره اللص الذي كان على سطح البوابة الجنوبية..

لم يستطع الحارس أن يفعل شيئا سوى أن يطلق تأوّها مكتوما بعد أن شعر برضض شديد في ظهره، ووجد اللصَّ باركا فوق ظهره وهو يكمّم فاه بيديه؛ في الوقت الذي تحرك فيه اللص الذي كان مستلقيا وتناول بندقية الحارس التي سقطت بجانبه، وضرب قفا الحارس بكعب البندقية، فأفقده وعيه في الحال..

قبل أن يبدأ هذا الهجوم الخاطف الذي لم يتجاوز عشر ثوانٍ كان اللص الذي فوق البوابة الرئيسية قد تقدم إلى سطح البوابة الشرقية، ورمى بحجارة مسافة أمتار بعيدة في المكان الذي يقع شرق البوابة الشرقية؛ ليشتت ذهن الحارس القريب منها ويشغله عما يجري لصاحبه في البوابة الجنوبية..

عاد اللص الذي كان مستلقيا إلى استلقائه من جديد، وبدأت دقات قلبه تتباطأ عن تسارعها الذي جرى لها بعد الجهد الذي أدّاه للإطاحة بالحارس الأول؛ على حين كان صاحبه القافز قد فرّ إلى مسجد (عين السوق) ليكون ثاني لص يختبئ في صرحه..

بدأ الحارس المتبقي -وقد كان أقل فطنة- ينادي صاحبه؛ لكنه تنبه بعد ذلك أنه ليس من الحكمة أن يكشف مكانه لأي أحد قد يكون موجودا في المكان ويتربص به..

ظل اللص فوق البوابة الشرقية يطل بناظريه بين الفينة والأخرى؛ ليعرف الاتجاه الذي سيذهب إليه الحارس المتبقي، فقد كان يخشى أن يتردد في الذهاب إلى البوابة الجنوبية ويقرر الانسحاب من السوق ليذهب إلى بوابة حصن (نخل) التي لا تبعد عن السوق بأكثر من ثلاثمائة متر، فيستعين بغيره

من العساكر..

كانت خطة اللصوص تقتضي لفت نظر الحارس المتبقي وجذبه إلى البوابة الجنوبية بصرخة ألم مفتعلة يطلقها اللص المستلقي، وإلا فإن اللص الذي فوق السطح سيقفز عليه ليحسم أمره حتى لا يفسد العملية كلها..

أطلق اللص المستلقي الصرخة المفتعلة بالفعل، وانتظر اللصان الخطوة التي سيقدم عليها الحارس..

بقي الحارس مترددا؛ لكنه فكر أن تردده هذا قد تكون عاقبته ذهاب حياة امرئ بريء يتعرض الآن للعنف، ومن يدري ربما يكون هذا المعذب صاحبه الحارس الأول؟.. ولأجل هذا قرر أن يمضي نحو البوابة الجنوبية، ومع قراره هذا توجه اللص الباقي فوق السطح إلى سطح البوابة الجنوبية أيضا..

مشى الحارس خطوات متثاقلة -وهو يُشْهِر بندقيته- من البوابة الشرقية إلى البوابة الجنوبية، حيث لقي جسدين ممددين على الأرض، أحدهما جسد صاحبه، وقد عرفه من زِيِّه وملامحه..

كان اللص المستلقي قد تعمد أن يستلقي بعد الحارس المغمى عليه؛ فإذا جاء الحارس الثاني فإن أول جسد ممدد سيصادفه هو جسد صاحبه..

وبفطرة بدهية تقدم الحارس نحو جسد صاحبه ليطمئن عليه وهو يختلس النظر حوله وصَوْبَ الجسد الآخر متحذرا مما قد يحيط به..

أخيرا قرر أن ينحني ليتحسس دقات قلب صاحبه، فما كان من اللص الذي على سطح البوابة الجنوبية إلا أن أسقط نفسه على جسده؛ لتكون نهاية هذا الحارس الثاني كنهاية صاحبه الأول..

من موقعه أمام البوابة الجنوبية أعطى اللص القافز على الحارس الثاني إشارة ضوئية مشفرة لِلّصَّيْنِ اللذين يختبئان فوق صرح مسجد (عين السوق)، فهرعا ينضمان إلى صاحبيهما..

فتحوا البوابة الجنوبية وسحبوا الحارسين إلى وسط السوق قبل أن يقوم اثنان منهم بنزع ثياب الحارسين ليرتدياها، ثم حملا سلاحَيْهما..

اتجه اللصان المتخفيان في ملابس العسكريين إلى حراسة البوابة الشمالية التي كان بجانبها السراج المنير، وذلك ليوهما كل من قد ينظر فجأة من أعلى الحِصْن من العساكر- بأن الحراسة لا تزال باقية وإن كان الذي في الحصن لا يمكنه أن يرى ملامح الحارسين؛ بل يرى بوساطة السراج القريب منهما وجود شبحين قرب البوابة..

بعد أن استعاد اللصان الآخران الفأسين اللذين تركاهما قرب البوابتين الشرقية والشمالية- أوصدا هاتين البوابتين من الداخل بالمراتيج..

ثم بدأا العملية الكبرى..

سرقة الذهب!..

الخطة..

- هذا ليس مقبولا أبدا!!..

زَأَرَ بالعبارة الوالي في غضب عارم في وجه عساكره جميعا في وقت مبكر جدا من صباح اليوم، وهو لا يزال يدور حول منضدة مكتبه عدة مرات؛ مشبكا يديه خلف ظهره..

كان الوالي قبل قليل قد تلقى من أحد عساكره خبر سرقة السوق، فلم يهدأ له بال حتى جمع عساكره كلهم عدا الحارسين اللذين أصيبا ليلة السرقة؛ إذ لا يزالان يعانيان رضَضا في عمودَيْهما..

- أيعقل أن يتغلب اللصوص على عساكر الحصن في ساعة من الليل؟!..

- شيخنا.. إن اللصوص الذين رآهم الحارسان كانوا ثلاثة في مقابل اثنين من العساكر!..

نطق بالجواب بعض العسكر، فزفر الوالي ساخرا وهو يواصل دورانه حول المنضدة دون أن يعير وجهه للعسكر:

- وهل يعني هذا أن العساكر المدججين بأعتى البنادق يجب أن يكون عددهم دائما كعدد اللصوص المجردين من الأسلحة حتى يتكافأ الطرفان فيتمكن العساكر من اللصوص؟!!..

- لقد كان اللصوص الثلاثة في غاية الاحتراف والذكاء..

تدخل بالدفاع عسكري آخر، فتوقف الوالي عن الدوران والتفت إليهم مُقَرِّعا:

- صحيح.. إني أوافقك تماما بأن عساكرنا أقل ذكاء من اللصوص، وإلا فما معنى أن تتغلب حفنة من اللصوص لم يتلقوا في حياتهم أي تدريب

عسكري- على عساكر مدججين بأفضل البنادق طالما أُرْهِقُوا بالتدريبات والأعباء الأمنية الشاقة..

نُكِسَ العساكر على رؤوسهم وهم يُوَبَّخُون بهذه العبارات، فأراد قائدهم أن يُسَوِّغَ عذرهم قائلا:

- شيخي الوالي.. إننا لا نعرف جميع الظروف التي أحاطت بحادثة السرقة؛ سوى ما حكاه الحارسان المصابان، وربما لو كان أي واحد منا في موقفهما لما فعل غير ما فعلاه؛ لأن..

قاطعه الوالي قائلا:

- لكن ما فعلاه خطأ، ولا يجوز أن يفعله أي واحد منكم.. إن جميعكم يعلم أن السوق كبير، وله أربعة أبواب، ولا يمكن لحارسين أن يقوما بحراسة كل البوابات، وليس وجود الحارسين إلا لتمشيط المكان.. وعلى من يحرس السوق أن يطلق النار في الهواء لكي يطلب المدد من عساكر الحصن لمجرد سماعه أي صوت مشبوه أو حدوث أي شيء يشتبه فيه..

توقف الوالي لحظة قبل أن يردف:

- ماذا سيقول التجار والأهالي عن الوالي وعساكره بعد هذه الفضيحة التي مُنِينا به؟!.. هل تظنون أن أحدا من الناس سيثق بنا مستقبلا ويأتمننا على ماله ونفسه؟!.. إن هذه السرقة ستبقى عارا ملازما لنا إن لم نمسك بفاعليها.. أتفهمون؟!..

- عذرا شيخنا الوالي.. نحن نعترف بخطأ الحارسين في عدم تنبيهنا بشكوكهما؛ لكننا نعذرهما لأن ما سمعاه لم يكن صوت كسر قفل أو فتح باب؛ لكي يشتبها في اقتحام أحد السوق فيطلقا طلقات التحذير.. إن ما سمعاه مجرد شهقة لا يُفهَم منها سوى أن أحدا من الناس قد رأى شيئا في الظلام مخيفا -ربما عفريتا- فشهق.. ثم إن العملية التي نفذها اللصوص كان وراءها عقل مدبر لا قِبَل لنا به، ووراءها خطة محكمة لا قدرة لنا على صدها.. كان اللصوص

يتحركون بسرعة عجيبة، ويراقبون تحركات الحارسين بعناية، وينفذ كل واحد منهم دوره بدقة فائقة.. كل ذلك يفعلونه في سرعة البرق، وفي زمن خيالي؛ كما لو أنهم يتفاهمون بينهم في الظلام على رغم المسافات بين البوابات... إننا حقيقة لا ندري ما الإمكانات والوسائل التي يمتلكونها لكي يفعلوا كل ما فعلوه في ظرف ساعة من الليل؟!..

استمع الوالي جيدا إلى حقيقة ما عرضه قائد العسكر، وهز رأسه مُطْرِقا في كل كلمة قالها..

فعلا إن الخطة التي نفذها اللصوص وراءها عقل مدبر لا قبل لهم بمجاراته.. ولهم إمكانات ووسائل لا يمتلكها حتى العساكر..

- انصرفوا جميعا ولْيَبْقَ (زاهر) وحده..

نطق بالعبارة الوالي بعد طول تفكير، فانصرف جميع عسكره خلا قائدهم (زاهر)..

انتظر القائد خروج زملائه قبل أن يقول:

- كأن في ذهن شيخنا فكرة ما..

- نعم يا (زاهر).. سنعيد أنا وأنت مراجعة أحداث سرقة السوق بالتفصيل كما لو كنا مشاركين في تمثيلها..

نطق بالعبارة الوالي، ثم التفت إلى وجه (زاهر) مضيفا:

- إن أي لص مهما بلغ احترافه لا بد أن يترك شيئا يقود إليه.. وليس شيء يستحيل على امرئ مادام غيره من البشر قد فعله؛ إلا أن يشاء الله.. وبعد أن نضع أيدينا على الثغرة التي تركها اللصوص نتفق على خطة لا يعرفه سوانا..

صمت لحظة قبل أن يؤكد ما قاله وهو يرفع يده مشيرا بسبابته إلى قائد حرسه:

- أنا وأنت.. فقط!..

الوكر..

- هنا انتهت آثار السرقة شيخي..

نطق بالعبارة (سلام) وهو يخاطب الوالي ويشير إلى موضع وسط جبل (بان)..

- ماذا تعني بهذا؟!..

سأله الوالي مستنكرا، فأجابه (سلام) برويّة:

- إن علم القفر -كما يعلم شيخنا- يعتمد على تتبع الآثار التي يخلفها الجاني وتبقى شاهد عيان؛ كآثار أقدامه، أو أي علامة تَطْبُق في الأشياء اللينة.. ولكن البحث عن آثار أحذية اللصوص في الصخور الصمّاء والجبال القاسية يختلف عن البحث عن الآثار نفسها في السهول، ذلك لأن الأتربة العالقة بأحذية اللصوص لا تلبث أن تندرس في الصخور رويدا رويدا، وقد اجتهدت في تتبع ما بقي منها حتى بلغنا إلى منتصف الجبل؛ لكنني لا أستطيع أن أجد تكملة لها بعد هذا الموضع، ولا يمكننا أن ندرك الجهة التي ساروا فيها إذا كانوا قد ظلوا يقطعون الطريق في الجبال ولم ينزلوا منها في مكان قريب؛ إلا اللهم إذا سقطت منهم بعض الأشياء التي كانوا يحملونها وتدل على جهة سيرهم في الجبل الجلمود..

- هذا يعني أن علينا أن نبحث عن وكر العصابة في هذا الجبل..

- ربما يكون الوكر هنا، وربما يكونون قد استعانوا بالجبل للتمويه فحسب، وأكملوا طريقهم في سلاسل الجبال حتى نزلوا إلى المكان الذي كانوا يقصدونه..

أشار الوالي إلى العساكر؛ وقد حضروا بصحبته ليفتشوا عن أي وكر يمكن أن يكون موجودا في جبل (بان)؛ أو أي علامة يمكن أن يكون اللصوص قد خلفوها وراءهم سهوا.. ثم أجال نظره في أنحاء الجبل قبل أن يخاطب (سلام):

- إن هذا الجبل منبسط، سهل الصعود، وهو ليس بالمرتفع على الرغم من عرضه البالغ في الطول، ولعل هذه الأسباب شجعت اللصوص على أن يصعدوه بحمولة الذهب..

- نعم شيخي.. أرجو أن يعثر العساكر على شيء يقودنا إلى اللصوص..

ظل الوالي بجوار (سلام) يتحدثّان في موضوعات متفرقة في الوقت الذي اشتغل فيه العساكر بالبحث..

مرت ساعة ونصف..

وأزفت الشمس من كبد السماء..

وبدا اليأس يعلو هيبة الوالي؛ والعرق يغطي وجهه وثوبه..

- وجدتها!.. وجدتها!..

جاء الصوت هذه المرة من أعلى الجبل، فهب الوالي في حماس حين سمع بالكلمة يصرخ بها أحد العساكر وهو ينزل من إحدى مواضع الجبل..

- قف مكانك.. نحن نأتيك..

أجابه الوالي وقد شرع في الصعود دون أن يضيع لحظة انتظار واحدة، وتبعه (سلام)..

صعد الاثنان إلى أن التقوا العسكري الذي صرخ بالكلمة وقد تجمع حوله سائر زملائه العساكر..

- ماذا وجدت؟..

سأله الوالي وأنفاسه تَصَّعَّد..

- المغارة.. وجدت مغارة في الجانب الخلفي للجبل أي في الغرب..

لم يحتج الوالي إلى أن يسأله سؤالا آخر؛ بل طفق الجميع يمشي خلفه حتى انتهوا إلى المغارة في الجبل..

- أشعل السراج يا (خميس)..

وجه الوالي أمره إلى أحد عساكره الذين أمرهم بالتزود بسراج احتياطا..

استجاب (خميس) فأشعل السراج على الفور، وبدأ يدخل المغارة بحذر كالمتردد..

لم يكن الوالي ليغامر بدخول جميع عساكره في مكان لا يعرفون كنهه، فاكتفى بدخول واحد منهم؛ لكنه رآه مترددا فقال له:

- لماذا تتردد في المشي؟!..

- شيخي.. قد يكون في المغارة بعض الهوامّ، والسراج لا يكشف مسافة طويلة؛ بل لا يكاد يضيء سوى باعٍ واحد مما حوله..

كان (خميس) محقا في كل كلمة قالها، فعلّق الوالي وهو يتابع دخول (خميس) إلى المغارة دون أن يلتفت إلى أحد غيره:

- هذه مشكلة السراج دائما.. فعلى الرغم من منفعته في إنارة ما حوله؛ فإننا في كثير من أعمالنا محتاجون إلى آلة أخرى تستطيع أن تكشف لنا الأشياء في الظلام على مسافة أطول..

- هل تعتقد أن مثل هذه الآلات من الممكن أن تكون موجودة؟..

سأله (زاهر) قائد الحرس، فتمهل (الوالي) قليلا قبل أن يقول:

- لا أدري.. لكني أفكر في أن أعلن عن جائزة سخية لمن يجد لنا آلة تغنينا عن السراج، فلعل عقول الناس على اختلاف مشاربهم وتجاربهم في الحياة وسفرهم إلى أقطار الدنيا- تتحرك لإيجاد حل لحاجتنا بشيء نحن لا نعرفه..

توقف الوالي عن الكلام بمجرد رؤيته للسراج وهو يعود من داخل المغارة..

- هل وجدت شيئا؟..

سأل الوالي (خميس)، فأجابه على الفور:

- نعم..

- ما هو؟..

نطق الوالي متلهفا، فأجابه:

- بعض الملابس.. وشيء من الأواني والأكواب.. ومواقد للنار..

- ألم تجد شيئا آخر مثل الصناديق أو العلب؟..

- لا.. لا يوجد..

- هل نبشت تحتك، فلعل من يسكن في المغارة قد أخفى شيئا في سرداب صنعه في أرض المغارة..

- لم أنبش؛ لكني لا أعتقد ذلك، فالأرض جبلية..

- أعطني السراج..

سلم (خميس) السراج للوالي، فشرع هذا في دخول المغارة وهو ينادي:

- (زاهر).. خذ (الْهِيْب) من (سليمان) وتعال معي إلى الداخل..

- أمرك شيخي..

واصل الوالي دخول المغارة وفي يده السراج، يصحبه (زاهر) وفي يده الهيب الذي احتاطوا به منذ أن قادهم القفر إلى الجبل، وبعد تنقيب دام عشر دقائق خرج الاثنان والبقية ينظرون إليهم منتظرين النتيجة النهائية لتخطيط الجريمة..

- هيا بنا نغادر.. قد اكتشفنا الوكر على الأقل وإن لم نجد شيئا..

قالها الوالي، فتبعه الجميع فارِغِيْ الوفاض منصرفين إلى حيث أتوا..

ابتعاث..

- بالمناسبة يا (سلام)..

قال الوالي مخاطبا (سلام) بعد أن تناولا في مكتبه بالحصن بعض الفواكه وارتشفا القهوة، فأجابه (سلام) بصوت أقرب إلى أصوات العسكر حين يذعنون لتنفيذ الأوامر:

- نعم شيخي!..

- إن والي (صور) محتاج إليك في قفر السرقات التي تحدث في (صور)..

- وما أدراه بي؟!..

- لست أنا الذي عرّفته بك.. وإنما الإمام.. إن الإمام على علم بك؛ لأني استرشته في توظيفك برسالة أرسلتها إليه كما أخبرتك، ثم إن الإمام يتابع القضايا التي تحدث في (نخل) وفي غيرها أولا بأول من خلال الرسائل التي يرسلها إليه كل والٍ، ولا شك في أنه قرأ ما كتبتُه أنا له من أنك تجاوزتَ امتحان التوظيف، واطلع على قضية سرقة الشاتين ودورك في التوصل إلى الجاني.. وحينما أرسَلَ والي (صور) إلى سلطان مسقط يشكو إليه السرقات في ولايته أرسل السلطان إلى الإمام يطلب منه إرسال من له بصيرة بالقفر، فأرسل إليه الإمام يخبره بأنه سيرسل إلى والي (صور) قافرا من ولاية (نخل)، ولأجل هذا أرسل إليّ الإمام رسالة يرجوني فيها أن أقبل إرسالك إلى والي (صور) لتقضي معه مدة شهرين فيسترشد بخبرتك..

- لكني سأكون حزينا ما دمت بعيدا عن شيخنا الجليل.. ولاسيما أنكم تمرون الآن بأصعب ظرف إذ تواجهون أكبر سرقة..

- ونحن سنشتاق إليك أيضا.. لكنك قد أديت دورك المطلوب في تتبع آثار هذه السرقة، ولا ينبغي أن نطالبك بأكثر من هذا الدور بعد مرور خمسة أيام من الحادثة ومراقبتنا لوكر العصابة في جبل (بان) دون أن نتوصل إلى نتيجة..

قالها الوالي وهو يربّت على كتفي (سلام)، فقال هذا الأخير:

- إن (صور) بلاد بعيدة جدا، والطريق إليها أكثره صحراوي شاق لا يخلو من المخاطر، فأرجو أن يعينني الله على الرحلة إليها..

- لا تقلق.. سأزودك بفرس وسلاح يحميانك بإذن الله، والله خير الحافظين..

هز (سلام) رأسه موافقا، وقد بدا الحزن على وجهه لفراق شيخه الوالي!..

ثم طرق الباب قائد العساكر (زاهر) وهو يقول:

- شيخي العزيز.. هل سنعلن الجائزة صباح الغد في السوق؟..

- نعم، وكذلك في حارات (نخل) جميعها..

- ولكن ما مقدار الجائزة؟..

- 500 قرش!..

قالها الوالي وهو يشير بأصابعه الخمسة، فسال لعاب مَن حوله في الحال..

السِّيح..

أخذت الشمس تسبح منذ شروقها حتى استقرت في قمة عليائها، ثم أخذت تسكب عرقها على جميع الذين يجازفون بالخروج في الهاجرة..

في هذه الأثناء كان ثلاثة من الرجال يقبعون في عريش لهم صنعوه في إحدى السيوح التي تقع في الشمال الغربي من (نخل)، وقد التحفوا بثياب الشُّوَّان، وصنعوا حظيرة قريبة من عريشهم أودعوها بعض الشياه التي ينتفعون بها..

- متى نرتاح من حياة الشُّوَّان هذه، ونسعد بالحياة الهنية التي طالما حلمنا بها؟!..

نطق بالعبارة أحدهم في سخط وقد عقد ذراعيه على صدره، فأجابه رجل تبدو عليه الحنكة:

- إن الزعيم يقول إنه يبحث عن طريقة عاجلة للخلاص من ارتباطاته؛ لكي يغادر معنا دون أن يلفت انتباه أحد..

- وماذا لو لم يستطع الزعيم أن يتخلص من ارتباطاته، هل نبقى مكتوفي الأيدي؟!..

تلفظ بالسؤال الشخص الثاني في حنق، فأجابه الرجل المحنك أيضا:

- معكما حق في كل مخاوفكما.. لكننا لا نستطيع أن نتركه ما دام يحتفظ بنصف الذهب في مكان لا نعلمه..

- كنا مخطئين حين وافقناه على احتفاظه بنصف الذهب..

أبدى الشخص الأول وجهة نظره في غيظ واضح، فعلّق عليها المحنّك:

- قد أقنَعَنا بمنطقه، فنحن ثلاثة وهو واحد، وقد تعب هو حين أخذ الدور الأكبر في العمليات؛ إذ كان يضع الخطط ويشارك في تنفيذها ويضلل

الوالي؛ على حين اكتفينا نحن بمشاركته في التنفيذ، ومن حقه -لو أعطانا حقنا من الذهب- أن يظن أننا سنهرب بنصيبنا لأننا حينئذ نكون في غنى عنه؛ على حين يبقى هو متورطا بارتباطه بالوالي غير قادر على مغادرة البلد وإلا أثار شكوك الوالي فيتبعه بعسكره.. فكان لابد أن يمسك بجزء كبير من حصتنا ليلزمنا بالاستمرار معه لتنفيذ خططه إلى نهايتها..

- وماذا لو خدعنا وهرب بنصف الذهب؟!..

قال الثاني متخوفا، فأجابه المحنك وهو يمط شفتيه بكل هدوء:

- إنه ليس مجنونا حتى يفعل ذلك!..

- لماذا؟!..

- لأنه يدرك أنه لو فعلها، فإن أقل ما يمكن أن يخسره هو والده وأخوه.. وربما أخته!!..

بلع الاثنان ريقهما وهما يتخيلان الجريمة التي قد يضطران إلى تنفيذها لو خدعهم (سلام)؛ لكن قلقهما زال في الوقت نفسه بعد أن اطمأنّا بأن (سلام) لا يجرؤ على الهرب..

وفجأة صمتوا جميعا؛ إذ انتهى إلى مسامعهم وَقْعُ خطوات تقترب من عريشهم، فأشار إليهما المحنك بأن يجلسا مكانهما ليستطلع الأمر بنفسه..

فتح بعض الباب رويدا وهو يطل بعين واحدة..

- لا تقلقوا إنه الزعيم.. قد حضر..

تنهد الاثنان، وانتظروا جميعا في عريشهم حتى دخل عليهم الزعيم الذي لم يكن سوى (سلام):

- السلام عليكم..

- وعليكم السلام..

ردوا جميعا تحيته، فأضاف:

- كيف الحال؟.. هل من جديد؟..

- ليس معنا أي خبر، وإنما ننتظر الأخبار من عندك..

أجابه (صلاح) وهو ينظر في وجه صاحبيه، وانتظر الثلاثة (سلام) وهو يخلع حذاءه قبل أن يتنفس الصعداء ويقول:

- هل سمعتم بالجائزة التي رصدها الوالي؟..

نظر الثلاثة بعضهم إلى بعض قبل أن يقول (شهبار):

- لا لم نسمع.. ولم نعلم بها..

- إن الوالي قد رصد جائزة لمن يأتيه بأداة تفوق السراج في الإنارة..

- وفيم يعنينا هذا؟!.. ولماذا تشغل بالك بهذه الأمور على حين أننا نعد اللحظات والساعات ونحن ننتظر منك أن تفكنا من ارتباطاتك التي لا تنتهي لتحين الفرصة السانحة لاقتسام الذهب والخلاص من هذا المكان..

نطق (غريب) بالعبارة في حنق، فحدّق في وجهه (سلام) بنظرة نارية قبل أن يقف ليقول في غضب:

- لا يمكننا أن نسمح لأحد منّا بأن يفسد كل شيء بعجلته بعد كل التخطيط الدقيق والمجهود المضني الذي بذلناه في سبيل سرقة الذهب.. لقد تعبت طويلا في رسم خطط السرقات لكم، وأقنعت الوالي بمهارتي في القفر.. ثم ظللته هو والعساكر لينصرفوا عن تتبعكم في سرقة الشياه.. ثم كنت معهم آخر مرة وهم يبحثون في جبل (بان) بتوجيه مني حتى عثروا على وكرنا القديم الذي تعمدنا أن نضع فيه ملابس مزيفة لا تخصنا..

صمت الزعيم وهو يجلس بسرعة ويهوي بيده إلى أسفل ساخطا..

وصمت الجميع، وقد اختنقت الكلمات في حلوق بعضهم؛ حتى بادر (شهبار) بالحديث من جديد:

- أيها الزعيم.. اعذر (غريب) فيما قاله، فأنت تعرف مزاجه العصبي

وتهوره.. وأخبرنا الآن بما تريد أن تقوله بشأن الجائزة..

رفع (سلام) أخيرا رأسه ليوجه كلامه للجميع:

- اسمعوني.. إن الوالي قد رصد 500 قرش.. جائزةً لمن يأتيه بأداة تَفُوق قدرة السراج في الإنارة، وأذاع عساكره هذا النبأ في السوق والحارات.. وسبب هذا كما سمعت بأذني منه وهو يتحدث إلى عسكره في جبل (بان) بأن السراج الذي يستخدمونه في عمليات البحث في الظلام لا يعطيهم رؤية واضحة لمسافة كافية، ولا يستطيعون الانتفاع به في توجيه الضوء إلى الأماكن التي يصعب أن يصلوا إليها في الظلام، وقد تعبوا بالفعل من التنقيب في أنحاء المغارة بسبب السراج..

توقف ليلتقط نفسا، والجميع مشدودون إلى الاستماع إلى عقله المدبر الذي طالما أعجبوا به، ثم أكمل:

- وقد أخبرني أيضا أن الإمام المطلع على أحوال (نخل) وغيرها من ولاياته قد أرسل إليه سلطان (مسقط) يطلب منه أن يَمُدَّه بقافر بصير ليعين والي (صور) في الوقوف في وجه السرقات التي تفشّت فيها، فما كان من الإمام إلا أن رشّحني وأرسل إلى والي (نخل) يأمره بابتعاثي إلى والي (صور) لأمكث معه شهرين..

سَعِدَ (شهبار) بهذا النبأ وقد فهم منه ما يخطط له الزعيم قبل أن يواصل حديثه قائلا:

- كنت غير قادر على مغادرة (نخل) سرا وأنا مرتبط بوظيفة القفر مع الوالي، وإلا شك في اختفائي وطلب تعقبي في سائر الولايات، وربما عَمَّموا -على كل محلات الذهب فيها- بأن يبلِّغ الباعة عن كل من يأتيهم بذهب يود بيعه، فتصير قدرتنا على التصرف في الذهب في مدة قصيرة أصعب، وقد يتجاوزون الاحتياطات الأمنية إلى أبعد من ذلك فيعممون على المراكب بألا

تحمل على ظهرها أيَّ أحدٍ في يده ذَهَبٌ إلا بموافقة السلطات..

سكت (سلام) ليجمع أفكاره الأخيرة قبل أن يصدر أوامره لفريقه في قوله:

- سيقدِّم (شهبار) -وهو أحسنكم فطنة- أحد المصباحين اليدويين لعساكر الوالي؛ موضحا لهم بأنه بدعة جديدة جلبها من إحدى بلاد الفرنج في بعض رحلاته إليها، ونستفيد من القروش الخمسمائة في شراء ثلاثة خيول لكم تعينكم على السفر وثلاثة أسلحة.. وبعد أن تشتروها أقول للوالي بأني رتبت أموري وأنا مستعد للذهاب إلى (صور) بالفرس والسلاح اللذين وعدني بأن يسلمني إياهما يومِ الأربعاء ليلة الخميس المقبل، فأخرج أنا من (نخل) بفرسي بعد شروق الشمس بساعة، وتخرجون أنتم في التوقيت نفسه بخيولكم وأسلحتكم ومعكم الذهب الذي توارونه بأكياس مُلِئت بالقماش الساسوني الذي تصطنعون أنكم تودون بيعه في (بركاء).. سنلتقي في (الواسط)، ثم نمضي سويا من طريق (بركاء) والسيب وفنجا فالشرقية إلى (صُور)؛ لكننا في اليوم الذي نقترب فيه من مشارف مدينة (صور) سنتأخر حتى منتصف الليل لكي نلطخ الفرس بالدماء وندع رسالة والي (نخل) الموجهة إلى والي (صور) في سرج الفرس، ثم نذر الفرس تمشي وحدها في طرقات المدينة لعل شخصا يلتقطها فيعلم أن صاحبها قد قتل، وتدله الرسالة على أن صاحب الفرس هو القافر المرسول من قبل والي (نخل) إلى والي (صور)؛ ليستنتج والي (صور) بأن القافر قد قتله قطاع الطرق؛ على حين نهرب نحن بالذهب إلى مكان آمن سأخبركم به حينئذ..

انتهى الزعيم من شرح كامل تفاصيل (العملية الأخيرة)..

وتنهد الجميع تنهيدة طويلة!..

تنهدوها بكل راحة وسكينة!!..

القزم..

في شمال غرب حدود (نخل)..

وبالتحديد في قرية (مِسِلْمات) التي تعد أقرب القرى الخارجية المجاورة لولاية (نخل)..

خرج أحد الأقزام على جحش وَشِيكٍ، وهو يحمل ثلاثة جِرَاء من ثمار الْوَعَى..

كانت السماء قد أوشكت أن تتوشح بالسواد، وأن تستبدل بحمرتها دِهانا قاتما، وبدأت رؤية الأشياء تتلاشى تدريجيا، لولا ظهور هذا القزم!..

اقترب الآن من محلة (مُخَوَّل) التي تقع أسفل جبل (عاقُوم) من شماله..

وعلى بعد نحو أربعمائة متر من جنوب غرب جبل (عاقوم) يقع حصن (نخل) على تلة متوسطة الارتفاع جعلت الحصن شامخ الجمال في عيون أهاليه، وزادته هيبة وجلالا في قلوب كل عدو يقترب منه..

كان (خليفة) القزم يرتدي مصرا أكبر من رأسه!.. فكان كل شعره مغطى ولا يكاد يَبِين..

ويتحلى بخنجر أوسع من خصره!..

تقدم الرجل على هدوئه المعهود، وهو يسير في الوادي الذي يمر بجوار الجبل..

وفجأة ظهر أمامه فارسان حجبا عنه الرؤية!..

وبدا القزم بجحشه الصغير كهِرٍّ وسط أسدين!..

لم يجد القزم تفسيرا لاعتراض الفرسين لجحشه سوى أنهما بعض قطاع

الطرق، فنزل فورا من حماره قبل أن يسألاه شيئا، وقال لهما متوسلا وهو يجثو على ركبتيه ويلقي بالوعى والخنجر أمامهما:

- خذا الخنجر والوعى.. وحتى الجحيش معهما.. ولكن اتركاني لحالي!..

- نحن لا نريد الوعى، ولا الجحيش؛ بل نريد صاحبهما..

رد عليه أحد الفارسين دون أن يترجّل من فرسه:

- كلا أرجوكما!..

نطق القزم بالعبارة؛ وهو ينهض بسرعة خاطفة فَيَمُدُّ رجليه هاربا من حيث أتى..

لكن أحد الفارسين أشار إلى صاحبه بأن يحافظ على الجحش والوعى ويأخذهما إلى الحصن؛ على حين ركض هو بفرسه نحو القزم..

نظر القزم خلفه، فرأى الفارس يلاحقه، ففزع حتى تعثر، واستسلم لمصيره..

- لماذا تشرد؟!..

- ماذا تريد مني؟!.. أنا إنسان ضعيف..

قال القزم متحسرا، فأجابه الفارس؛ ولم يكن سوى الوالي:

- من أين أتيت بجراء الوعى؟!..

- أعطاني إياهن ابن عمي..

أجاب القزم فورا على قدر عقله دون أن يسأل الفارس عن سبب اهتمامه بالوعى دون الخنجر:

- ومن هو ابن عمك؟..

- (حاتم بن سالم).. راعي مسلمات..

- وأنت ما اسمك؟..

- أنا اسمي خليفة..

- أين تسكن؟..

- ماذا تريد مني؟!.. قد تركت لكما الجحش بما حمل..
- أنا والي (نخل)!..
- أووووه!!..
مطّ القزم شفتيه باستغراب؛ قبل أن يبتسم إذ حصل له شرف لقاء الوالي وهو يراه أول مرة على الرغم من أن القزم يعيش في (نخل) منذ نعومة أظفاره، وطالما سمع بخصال الوالي الحميدة.. ثم أردف:
- أهلا بالشيخ الوالي!.. أهلا وسهلا.. ويا هلا ومرحب!..
- اركب معي!..
- لماذا؟!.. أتريد أن تضعني في السجن؟.. أنا لم أفعل شيئا..
انقلب وجه القزم حسرة مرة أخرى، فطمأنه الشيخ قائلا:
- لا تخف.. سنذهب إلى زيارة ابن عمك..
- لماذا؟!.. أنا أتيت من عنده الآن..
- اركب ولا تسأل كثيرا..
ركب القزم الفرس خلف الوالي، وانطلقا إلى مسلمات حيث يقطن ابن عمه، وتحقق الوالي من أن الرجل صادق، فعادا مرة أخرى إلى (نخل)؛ وهو يسأله:
- سألتك عن محل سكنك حين لقيتك، فلم تجبني حتى الآن..
- أنا أسكن في (الْحُجْرة الْمُنْقِشْعة)..
- إذن سأوصلك إلى (الحجرة المنقشعة)..
- والجحيش!..
سأله القزم وهو يطل برأسه جانبا ليرى وجه الشيخ، فأجابه دون أن يلتفت إليه:
- سنمر على الجحيش في الحصن؛ لتركبه ومعك الخنجر والوعى وكل زادك، ثم أرافقك إلى (الحجرة المنقشعة)..

- لا داعي.. طوّل الله عمرك..

- بل أرافقك؛ لأنك رجل صادق، وتستحق الصحبة..

- أحسنت..

بلغ الشيخ والقزم (فلج كَبَهْ) الذي يمر أسفل محلة (الحجرة المنقشعة)..

لم تكن (الحجرة المنقشعة) سوى محلة صغيرة بها سبعة بيوت فقط؛ لكن الفلج الذي كان يمر أسفلها قد زيّنها بالشلال الوحيد الذي صنعه الفلج لها دون سائر المحلات، وقد استغل الأهالي هذا الشلال بعبقريتهم الميكانية فصنعوا طاحونة حبوب تدور بالقوة المائية كانت الأول من نوعها، ليس في عُمان فحسب؛ بل في الجزيرة العربية.

صافح الشيخ (خليفة) مودعا، وأقفل راجعا إلى حصنه؛ على حين ظل (خليفة) واقفا في مكانه يرقب خطوات هذا الوالي؛ وقد امتلأت نفسه إعجابا به..

الخدعة..

اقتربت الوقتُ في ليلة الخميس من حدود السحر، وبدا الحصن الشامخ غارقا في هدوء غريب..

لكن هذا الهدوء لم يكن هدوءا طبيعيا..

بل كان أشبه بالهدوء الذي يسبق العاصفة!..

ففي مكتبه المعتاد.. عكف الوالي وقائد حرسه على مراجعة كل خطوة من خطوات الخطة التي وضعها الأول للقبض على سارقي الذهب..

تلك الخطة التي بدأا بتطبيق أولى مراحلها بالفعل منذ أن علما بسرقة السوق..

لكنهما لم يفشيا بسرها إلى أي أحد من العسكر؛ بل كان بعض العساكر يتلقون تعليمات منفردة لا يعرف عنها غيرهم في أمور متفرقة دون أن تَفْهَمَ أي مجموعة منهم أنهم ينفذون جزءا من عملية مشتركة مع سائر زملائهم؛ للإيقاع باللصوص..

قائد العسكر في كل مرة يتلقى التعليمات من الوالي على انفراد، ثم يطلب هو بدوره من أحد العساكر أو عدد منهم أن ينفذوا خطوة من خطوات العملية التي اصطلح الوالي والقائد على تسميتها بعملية (المصيدة).

قد كلف قائد العسكر العسكريَّ (حسن) بأن يراقب (شهبار) الذي استحق جائزة الوالي على الاختراع الجديد الذي أهداه إلى الوالي، ومن تلك اللحظة التي بدأ فيها (حسن) بمراقبة (شهبار) تكشفت بعض الحقائق؛ إذ علموا بالعريش الذي يذهب إليه (شهبار) تارة ويذهب إليه (سلام) تارة أخرى، وبعد مراقبة العريش خرج اللصوص الثلاثة جميعهم يوما لشراء الخيول والأسلحة، فتمت معرفة عدد اللصوص في العريش.

وفي اليوم الذي عُرِفَتْ فيه علاقة (سلام) بعريش اللصوص أمر الوالي قائده بأن يكلّف العسكري الفطن (سليمان) بمراقبة (سلام)، وأوصاه بأن تكون المراقبة عن بُعْدٍ وبكل حذر لأن (سلام) من الدهاة القطناء.

قد أمر الوالي عساكره منذ اللحظة التي عرف فيها حقيقة علاقة اللصوص بالمصباح اليدوي- أن يراقبوا جميع اللصوص الأربعة واحدا واحدا؛ خوفا من أن يهرب أحدهم بالذهب في أي لحظة مفاجئة؛ لأن أي لص يمكن أن يغدر بأصحابه.

لكن الرقابة لم تسفر عن معرفة الموضع الذي يخبئون فيه الذهب، فقرر الوالي أن يخطو خطوة جديدة؛ إذ استدعى (سلام) -بعد خمسة أيام من محاولة التوصل إلى أطراف سرقة السوق دون جدوى- فأبلغه برغبة والي (صور) بأن يستعين بخبرته للتصدي لكثرة السرقات التي برزت في (صور) في الآونة الأخيرة، وعلى الرغم من أن (سلام) أظهر الحزن على ما ستخلفه هذه المهمة من فراق لشيخه والي (نخل)- فإنه وافق في النهاية باعتبار رحيله هو الفرصة السانحة التي جاءته في طبق من ذهب للخروج بالذهب من (نخل) في مهمة رسمية لا تثير شكا.

قد تعمد الوالي أن يخبر (سلام) بموعد رحلته إلى (صور) قبل أيام متعللا بأنه يريده أن يرتب أموره ويقضي حاجاته التي بينه وبين أسرته والناس قبل سفره؛ لكن الحقيقة أن الوالي أراد أن يراقب تحركاته قبل أن يرحل فلعله يقوده إلى مكمن الذهب؛ إلا أن محاولة الوالي قد باءت بالفشل، حينئذ أخبر الوالي (سلام) بأنه سيسلمه الفرس والسلاح في مغرب ليلة الخميس التي هي آخر ليلة قبل رحيله إلى (صور)، فودّعه (سلام) بعد أن أخبره بأنه سينطلق عقب صلاة الفجر..

ها هو قائد العسكر (زاهر) قد عاد الآن بعد مجهود شاق وطويل قضاه طوال هذه الليلة -ليلة الخميس- وهو يتولى متابعة آخر التطورات بعد أن

أخبره الوالي بأنه أعطى (سلام) الفرس والسلاح منذ المغرب ليتوجه بعد فجر هذه الليلة فورا إلى (صور)..

- أخبرني بكل التفاصيل التي تحملها!..

وجه الوالي أمره إلى قائده وقد وصل لتوه وهو يلهث، فانتظره ثوانيَ حتى قال:

- إن (سليمان) لا يزال على فرسه مرابطا قرب بيت (سلام) وهو يراقب الفرس، وقد أكدت عليه قبل قليل بأن يتابع الطريق التي سيسلكها (سلام) بفرسه حتى يصل إلى الحصن فيعود (سليمان) إلينا هنا ليخبرنا بمغادرة (سلام)..

- تمام.. وأين (خميس)؟..

- إنه مرابط بسلاحه بعد الحصن قرب الطريق التي تعبر الواديَ، وسيتولى تعقب (سلام) حتى يمر بـ(باب الظُّفُور) ثم يلتقي اللصوص الثلاثة فينضم (خميس) إلى العساكر الستة ليتعقبوا اللصوص حتى يصلوا إلى (الواسط)، فإن غيّر (سلام) مساره ولم ينضم إلى اللصوص بل اتجه إلى (الواسط) فإن على (خميس) أن يخبر العساكر الثلاثة الذين يرابطون في مشارف (نخل) الشمالية في (الْمُرَيْغَة) بأن الخطة انتقلت من مرحلة التعقب إلى مرحلة الهجوم، فعلى العساكر الثلاثة أن يطاردوا (سلام) حتى يقبضوا عليه قدر الإمكان قبل (الواسط).. وعلى العموم فهناك فصيل آخر من العساكر في (وادي المعاول) -بينهم (حَسَن)- سيتعاونون في محاصرة (سلام) لو انحرف عن مساره الشمالي حيث (الواسط) واتجه غربا إلى (وادي المعاول)، فيكون عساكر (نخل) الثلاثة خلفه وعساكر المعاول أمامه، كالفأر الذي بين فكي الكماشة..

- جيد.. وماذا عن عصابة (سلام)؟..

- كلفت ستة من العساكر بمراقبة عريش اللصوص الثلاثة في السيح، وأمرتهم إن غادر اللصوص عريشهم بعد الفجر أن يتبعوهم خفية، فإن لم يخرجوا بعد الفجر فلينتظروا (خميس) حتى يخبرهم بأن (سلام) اتجه نحو

(الواسط) ولا يأتي السيح.. حينئذ سيباغت العساكر اللصوص بإطلاق النار فوق العريش لإجبارهم على الاستسلام والخروج واحدا واحدا، وإلا أطلقوا الرصاص على العريش عشوائيا، فمن أصابته رصاصة قتل..

- أحسنت.. وماذا عن تعاون والي (بركاء)؟..

- أبلغ الإمام السلطان منذ أيام بالأمر، فأمر والي (بركاء) بإعانتنا، ووعَدَنا والي (بركاء) بأن خمسة من عساكره سيرابطون في (الواسط) قبل فجر اليوم الذي سيغادر فيه (سلام) (نخل)، فإذا ظهر لهم فارس أو عدة فرسان يتعقبهم فرسان آخرون فإن على عساكر (بركاء) أن يقطعوا على الفرسان المطارَدِين ويجبروهم على الاستسلام في الحال وإلقاء أسلحتهم؛ وإلا أطلقوا عليهم النار..

- أشكرك على عنايتك بتنفيذ كل ما طلبته، وأشكر الجميع على تعاونهم..

- لا شكر على واجب شيخنا..

انتهى الرجلان من الحديث، ثم أُذِّن لصلاة الفجر، فخرج (زاهر) يجمع من بقي من العساكر في الحصن لأداء الصلاة جماعة، وأمَّهُمُ الوالي..

ثم ما لبث الوالي وقائده -بعد أن أنهيا قراءة الأذكار الصباحية- أن عادا إلى المكتب ليجدا (سليمان) داخل الحصن وقد توجه نحوهما فورا ليبلغهما أن (سلام) قد غادر البيت بفرسه، وتعقبه حتى اقترب من الحصن، فتركه لسبيله كما أمره القائد؛ إذ لم يكن (سليمان) يعلم من عملية المصيدة أكثر من هذا الدور الذي نيط به إليه..

حينئذ لم يستطع الوالي أن يخفي ابتسامته وقد دفعت بها هذه البشرى بسير الخطة على النحو الذي يتوقعه حتى الآن..

مسائل نحوية!..

- وخلاصة القول يا أبنائي في مسألة مطابقة الفعل للفاعل في العدد أن الفعل إذا تقدم على الفاعل فإنه يبقى مفردا حتى لو كان الفاعل مثنى أو جمعا، فأنت تقول (حَضَرَ الرَّجُلُ) و(حَضَرَ الرجلانِ) و(حضر الرجالُ)، وهكذا تقول في المؤنث: (حضرتْ فاطمةُ) و(حضرتْ الفاطمتانِ) و(حضرتِ الفاطماتُ)، ولا تقل (حضرا الرجلانِ) ولا (حضروا الرجال) ولا (حضرتا الفاطمتان) ولا (حضرْنَ الفاطماتُ)؛ إلا في لغة البراغيث!..

ألقى الوالي القاعدة على طلابه الخمسة وقد اعتادوا أن يقصدوه في مكتبه بالحصن صباح كلِّ خميس لينهلوا من علمه بالعربية؛ إذ خصص لهم ساعة بعد الشروق في يوم إجازته ليطرح فيها قاعدة، ثم يجيب عن أسئلتهم في موضوع القاعدة..

وعلى الرغم من أعبائه هذا اليوم، وانشغال فكره بمصير تعقب (سلام)؛ فإنه قرر أن يستقبل طلابه في هذه الساعة التي من المتوقع ألا يستطيع عساكره المطارِدون لـ(سلام) الرجوع إلى الحصن قبلها..

لكن جزءا كبيرا من عقله ظل متعلقا بما يمكن أن يفعله (سلام).. قد أدرك الوالي أن (سلام) داهية دهاء لم يعرف له مثيلا في حياته، وعلى الرغم من أن الوالي لم يكن أقل منه دهاء؛ فإنه كان مهموما بأعباء منصبيه: القضاء والولاية..

كان عليه أن يدير جميع شؤون البلد، وأن يظل ذهنه مشغولا بكل القضايا التي تَعْرِض له يوميا، وكان على همته أن تبقى عالية مستعدة للمشاركة في كل الجبهات، والتصدي لكل المارقين عن سواء الصراط..

وعلى العكس منه كان (سلام) مشغولا بقضية واحدة، وكانت همته منصرفة إلى جبهة واحدة هي قدرته على السرقة وخداع الوالي..

أخذ عقله يسترجع -في عجالة- شريطا طويلا من الذكريات بدأ بما فعله بـ(شنّوه) إذ نالت عقابه على يديه في الحصن بعد أن جاءت مذعنة، والدور الذي أتقنه (ياسر نقمة) للقبض على (حَسِينة)، وتَذَكّر اللص الذي قبض عليه العساكر فوق السوق لما أراد استغلال الشجار الذي دار بين التاجرين (عامر) و(زهران)، ثم حكاية (حمدان) الذي تعمد تأخير إطلاق سراحه حتى يغادر (سلام) إلى (صُور) لئلا يثير شكوك هذا الأخير، وأخيرا حكاية القزم الذي..

- وما هي لغة البراغيث يا شيخ؟.. أهي قبيلة؟!..

انقطع فجأة حبل التفكير في ذهن الوالي إذ ابتدر (أحمد) النقاش سائلا، فأجابه بعد ثوان استذكر فيها ما كان قد طرحه على طلابه، قبل أن يترك ظهره مسند الكرسي:

- لا يا بُنَيّ.. إن البراغيث ليست قبيلة، وإنما النحاة هم الذين سموها لغة البراغيث لوجود شاهد مشهور حكوه عن بعض العرب يقول (أكلوني البراغيثُ)، وكان الأصل أن يقول (أكلني البراغيثُ) أو (أكلتني البراغيثُ).. وبنو الحارث بن كعب يُجَوّزون هذه اللغة، وهي موجودة أيضا في القرآن في مثل قوله تعالى في أوائل آيات سورة الأنبياء: ﴿وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ...﴾.. فـ(الذين) هو في المعنى فاعل للفعل (أسروا) على رغم وجود واو الجماعة..

- إذا كان بنو الحارث يُجَوّزون هذا فما عسانا أن نعرب الواو في (أكلوني) مع وجود الفاعل (البراغيث)؟!..

طرح السؤال (عبدالله) متعجبا، فأجاب الشيخ:

- إما أن تعرب (البراغيث) مبتدأ مؤخرا، وخبرُه جملة (أكلوني) من الفعل (أكل) والفاعل الواو.. وإما أن تجعل الواو فاعلا و(البراغيث) بدلا من الفاعل.. أو تأخذ بمذهب بني الحارث بن كعب فتعتبر الواو حرفا كتاء التأنيث، ولا تعتبرها ضميرا، وتعرب (البراغيث) فاعلا..

- وكيف تكون المطابقة في العدد أيضا إذا تأخر الفعل عن الفاعل؟..

أدلى (سيف) بدلوه في مشاركة زملائه، فالتفت إليه الشيخ قائلا:

- إذا تأخر الفعل عن فاعله، فإن فاعله يعرب مبتدأ وليس فاعلا، والأصل أن يطابقه الفعل في عدده دائما، فنقول (الرجلُ حضرَ) و(الرجلانِ حضرا) و(الرجالُ حَضرُوا)، وهكذا تصنع في المؤنث إذ تقول: (فاطمةُ حضرَتْ) و(الفاطمتان حضرتا) و(الفاطماتُ حضَرْنَ)..

- وهل لهذه القاعدة شذوذ كما كان في القاعدة السابقة؟..

قالها (يحيى)، فأجابه الشيخ:

- نعم.. لا تكاد قاعدة تخلو من استثناء.. فالكوفيون يُجوّزون أن تقول (المحمدان قام) و(المحمدون قام)؛ لأنهم يجوزون تقديم الفاعل على الفعل، فيعربون (المحمدان) و(المحمدون) فاعلا سواء تقدم الفعل أو تأخر..

- أهذه هي الحالة الاستثنائية الوحيدة من القاعدة؟..

سأل (زايد) هذه المرة، فأردف الشيخ شارحا:

- كلا.. هناك حالة استثنائية أخرى؛ لكنها ليست حالة شاذة؛ بل هي الحالة الصحيحة المطردة، ولا يصح مخالفتها.. وذلك إذا دخل في الجملة أسلوب الحصر فإنك تقول (الرجلانِ ما غاب إلا هما) ولا تقل (الرجلان ما غابا إلا هما)، فالفعل في جملة الحصر يلزم الإفراد دائما سواء تقدم على الفاعل نحو (ما غاب إلا الرجلانِ) أو تأخر عنه، وسواء كان الفاعل مذكرا أو مؤنثا، وسواء كان الفاعل مفردا أو مثنى أو جمعا..

- وماذا عن المطابقة بين الفعل والفاعل في الجنس يا شيخنا؟..

تلفظ بالسؤال (عبدالله)، فقال الشيخ:

- إن قواعد المطابقة بين الفعل والفاعل في الجنس أوسع..

أراد أن يكمل عبارته لولا أن قائد العسكر طرق عليهم الباب قائلا في عجالة:

- عفوا شيخنا الجليل.. ائذن لي فالموضوع عاجل..

فهم الوالي مغزى عجلته فقام من كرسيه وهو يستأذن طلابه في استقطاع جزء من الدرس، وخرج من مكتبه..

تحدث قائد العسكر إليه بصوت خافت..

لم تتجاوز الألفاظ التي همس بها عشر كلمات..

لكنها كانت كفيلة بأن تغير وجه الوالي تماما!..

بل إنها قلبت (المصيدة) رأسا على عقب!!..

المطاردة..

لم تكد فرس (سلام) تتجاوز وادي (نخل) بعد الحصن حتى انطلق خلفها (خميس) بحصانه..

كانت الفرس تسرع على غيرِ عادةِ مَن يرتحل إلى مكان بعيد فيتمهل لئلا يستنزف طاقة دابته..

ومهما تكن سرعة (سلام) فإن التعليمات كانت واضحة في ذهن (خميس): «إن تمهّل (سلام) فتمهّل مثله، وإن أسرع فأسرع مثله حتى لا تفقد أثره؛ لكن لا تَلْفِتْ انتباهه إليك»..

كانت هذه السرعة التي تجري بها الفرس تشير إلى أن صاحبها في عجالة للقاء باقي أعضاء العصابة في السيح..

لكن العجيب أن الفرس لم تتجه نحو الجنوب الغربي لتمر بـ(باب الظُّفُور) فالسيح حيث عريش اللصوص..

بل اتجهت إلى الشمال صوب (الواسط)..

تعقب (خميس) الفرس حتى وصلت إلى (المريغة) حيث سلم مقاليد المهمة إلى الفصيل المُكَوَّن من ثلاثة عساكر..

أسرع الثلاثة يتابعون مطاردة الفرس؛ في الوقت نفسه الذي اتجه فيه (خميس) إلى العساكر المتربصين بلصوص العريش..

تلكأ اللصوص في البداية، وشاور (غريب) (شهبار) في إمكان أن يطلقوا النار بثلاثتهم دفعة واحدة وهم منبطحون أرضا؛ لكن (شهبار) رفض لأنهم لا يستطيعون رؤية العساكر من داخل العريش فكيف يجازفون بإطلاق الرصاص عشوائيا في الوقت الذي ستنهال عليهم فيه الرصاصات في مختلف الاتجاهات..

- ثمانية.. تسعة.. عشرة.. أطلقوا الرصاص..

صاح (خميس) في باقي العساكر فانبطحوا أرضا ووضعوا أيديهم على الزناد، و...

- مهلا!!.. نحن نستسلم..

نطق بالعبارة (شهبار) بسرعة البرق قبل أن تُفْتَحَ الجَحِيمُ عليهم، وبادر بسرعة إلى فتح الباب والخروج أول واحد، فما كان من (غريب) و(صلاح) إلا أن يقتدوا به، فيخرجوا خلفه، ويسلموا أسلحتهم عن يَدٍ وهم صاغرون..

في هذه الأثناء كان العساكر الثلاثة يَجْرُون بأحصنتهم خلف فرس (سلام) بكل ما أوتوا من قوة..

لكن فرس (سلام) كانت تتقدمهم كثيرا بسبب أن صاحبها لم يتوقف عن الجري منذ أن توقف (خميس) عن تعقبه ليتجه إلى فصيل العساكر الثلاثة ليبلغهم بضرورة مطاردته..

حاول العساكر الثلاثة أن يصرخوا طالبين من صاحب الفرس التوقف وإلا أطلقوا النار؛ لكنهم أيقنوا أن أصواتهم لا تصل إليه مع هذا البون الشاسع بينهم، وأن رصاصاتهم لا تستطيع أن تبلغه بدقة..

ظل صاحب الفرس يجري كما لو أن عفاريت الأرض تطارده..

ولم يفقد العساكر الثلاثة المدربون عزيمتهم وأملهم في القبض عليه..

استمرت المطاردة..

وأشرقت الأرض..

ولا يزال الطرفان في سباق حميم، وعناد عجيب!..

ووصل الجميع (الواسط)..

وتابعوا رهان السباق..

ثم فجأة ظهر أولئك الفرسان الخمسة أمام صاحب الفرس وهم يشهرون بنادقهم أمامه من بعيد..

أبطأ صاحب الفرس ليمهل نفسه لحظات من التفكير قبل أن يتخذ قراره الأخير..

التفت وراءه -ولا تزال فرسه تجري رويدا- فوجد أن العساكر الثلاثة مُجِدّين في جريهم نحوه..

فجأة انحرف إلى الغرب ليجري بأقصى سرعة..

لكن الفرسان الخمسة لم يمهلوه فرصة النجاة؛ بل شمروا عن خبرتهم في التصويب، وسددوا بإحكام نحو فرسه، فأردوها أرضا..

سقطت الفرس وهي تسكب أنفاسها الأخيرة على البساط الأبيض..

وتدحرج فارسها الهمام ليتوقف أخيرا عن عناده..

وتقدم الفرسان الخمسة، ولم يكونوا سوى عساكر (بركاء)..

وتقدم مثلهم العساكر الثلاثة من الاتجاه المقابل..

واقترب الطرفان من الفارس المصاب بالكدمات إثر سقوطه..

قام من مكانه لينفض الغبار عن ثوبه، ويعلن استسلامه..

وتقدم عساكر (نخل) ليضعوا القيود على يدي (سلام) الذي طالما أذلّ نواصيهم بدهائه..

لكن العجيب أنهم لم يفعلوا ذلك..

بل إنهم لم يستطيعوا أن يؤذوا كرامته ولو بأقل أذى..

لأنه في الحقيقة..

وبكل يُسْر..

لم يكن (سلام)..

بل كان أخاه (كامل)!!..

تقريع..

- لماذا تعاونت مع أخيك (سلام) لخداع العساكر؟..

ألقى الوالي السؤال بكل سخط على (كامل) وهو يُلَبِّبُهُ من قميصه بمجرد وصوله إلى الحصن بصحبة اثنين من العساكر الذين كانوا يطاردونه..

كان الوالي قد سمع بتفاصيل النبأ المفزع من أحد العساكر الثلاثة الذين قبضوا على (كامل) والذي تقدم زميليه ليسرع في إبلاغ الوالي وقائد العسكر بالخطب الجلل لعلهم يتداركون شيئا..

وأول ما فعله الوالي أن وبّخ العسكري (سليمان) على تقصيره في عدم تمييزه بين (سلام) و(كامل) حين كان يراقب بيت (سلام) طوال البارحة؛ لكن (سليمان) اعتذر بأنه لم يكن ليستطيع أن يميز بينهما في الظلام وهو مجبر على أن يكون على مسافة بعيدة من صاحب الفرس لئلا يشعر بتعقبه، ثم إن الأخوين يتشابهان في بياضِ البشرةِ، وفي البِنْيَةِ والطول وملامح الوجه..

لكن الوالي على رغم علمه بتفاصيل فشل خطته لم يهدأ له بال حتى يحاكم (كامل) وينتزع منه الحقيقة بنفسه، لعله يظفر منه بشيء ذي بال..

- لماذا كنت تجري طوال الوقت دون أن تتوقف؟!..

أعاد الوالي السؤال بعبارة أخرى لم تَقِلّ سخطا عن سابقتها وهو لا يزال يمسك بقميص (كامل) من وسطه..

- أنا لم أقصد خداع العساكر.. لقد ظننتهم قُطّاع طرق يستهدفونني..

نطق (كامل) بالإجابة وهو يتصبب عرقا وقد ارتعش جسده من الرعب..

- كيف ظننتهم قطاع طرق أيها المغفل وأنت تعرف أن زِيّ العساكر يختلف عن باقي الخلائق كلها؟!..

قذف بالعبارة الوالي في وجه (كامل) وهو يطلق سراح قميصه..

- أنا لم أر زِيّهم أصلا؛ لأنهم بدأوا يطاردونني قبل الشروق ولا تزال الدنيا ظلاما.. ثم..

لم يدعه الوالي يكمل دفاعه عن نفسه بل قاطعه محتجا:

- وماذا بعد الشروق أيها الساذج؟!..

- لم ألتفت إليهم بعد الشروق؛ لأني كنت فزعا من أن يلحقوا بي، فكنت حريصا على أن أبقي المسافة بيني وبينهم بعيدة بعد أن تأكدت أنهم يطاردونني بالفعل..

- لكنك حاولت أن تهرب حتى بعد أن رأيت عساكر (بركاء) أمامك.. فكيف تجرؤ على ذلك وأنت تعرف أن الهرب من رجال الأمن يعد جريمة؟..

- في الحقيقة أنا لم أميزهم لأنهم ظهروا أمامي من مسافة بعيدة، ولأني كنت متوترا خائفا من أن يلحقني القطاع الذين كانوا خلفي..

لم يستطع أن يجد الوالي حجة واحدة ضد ما فعله (كامل)، فقد كان كلامه أجمع منطقيا، فاضطر إلى أن يعود به إلى أصل الحكاية وهو يسأله بنبرة أقل حدة:

- ولماذا ركبت الفرس التي وهبناها لأخيك (سلام)، وحملت سلاحه أيضا؟..

- الحقيقة أني لم أكن أعلم أنها فرس من أفراس الحصن؛ لأن (سلام) أخبرني قبل خمسة أيام من مجيء الفرس إلى بيتنا أنه سيشتري فرسا وسلاحا، وسيعطيني إياهما لأحمل خمسين قرشا إلى صاحب له سيلتقيني في (الواسط) في هذا اليوم بعد الشروق.. وأخبرني أن أسرع بالفرس لأن هذه النقود دَيْنٌ عليه لصاحبه، وصاحبه في حاجة ماسة إليها لعلاج والده من مرض يحتاج إلى مال كثير.. واعتذرت له بأني لا أجيد ركوب الخيل، فذهب بي إلى جار لنا يملك بعض الخيول، وطلب منه أن يؤجرنا اثنين من أحصنته ليعلمني (سلام) ركوب الخيل في ثلاث ساعات في الصباح مدة

ثلاثة أيام؛ مقابل أجر سلمه إلى جارنا مقدما..

- وكيف أقنعك أخوك بأن تلتقي صاحبه بعد خمسة أيام فقط على الرغم من أن صاحبه -كما يقول- مضطر إلى المبلغ، محتاج إليه في أسرع وقت؟..

- قد ثار هذا السؤال في ذهني أيضا، وسألته إياه، فقال إن صاحبه أرسل إليه رسالة بأنه ليس في وطنه (بركاء)؛ بل في سفر بالمركب، وأنه سيعود بعد خمسة أيام ليستلم المبلغ، وأنّ مرض والده ليس من النوع الخبيث السريع الفتك؛ بل من النوع الذي يمكن الصبر عليه عدة أيام على رغم ارتفاع تكاليف علاجه..

شعر الوالي من ملامح (كامل) ونبرته أنه يقول الحق، ولاسيما أن كلامه كله كان معقولا، فسأله السؤال الأخير:

- وأين ذهب (سلام)؟

- في الحقيقة.. هذا الشيء الوحيد الذي لم أعرف إجابته.. فقد استيقظت قبل الفجر فلم أجده في فراشه.. وسألت عنه بعد صلاة الفجر؛ لكن لم يكن أحد يعرف أين ذهب؛ بل كان أهل بيتنا وجيراننا مشغولين بالفرس الذي اختفى البارحة من حظيرة جارنا الذي كان قد أجّرنا الخيول..

نطق (كامل) بالعبارة الأخيرة على وتيرة واحدة كما لو أنها كانت معلومة لم تشغل باله، ولا يكترث بها أحد..

لكن جسد الوالي انتفض كله حالما انتهى (كامل) من عبارته، وصرخ في وجه حرسه آمِرا:

- جهزوا لي سلاحي وحصاني للسفر الآن حالا وبأقصى سرعة.. وأنت يا (زاهر) أيضا ستصحبني فجهز فرسك وسلاحك..

لم يفهم أي واحد منهم ما الذي قلب الأمور في عقل واليهم، ولا ما الذي ينوي فعله؛ لكنهم هبوا جميعا يتسابقون لتنفيذ أوامره بدون لحظة تأخير..

مرسى (بركاء)..

استحوذ العصرُ على الوقتِ..

واقترب الوالي وقائد عسكره (زاهر) من حصن (بركاء)..

وعلى الفور طلب والي (نخل) من حراس الحصن مقابلة والي (بركاء) على عجالة قصوى..

لم يطل لقاء الواليَيْنِ؛ بل خرجا سريعا من الحصن يتبعهما (زاهر) وزمرة من العساكر، واتجها فورا إلى الْمَرْسى..

وعلى الفور انطلق والي (نخل) يسأل أصحاب المراكب المخصصة للسفر إن كانوا قد شاهدوا رجلا يحمل أكياسا من القماش الساسوني له ملامح (سلام) الذي لا يعرفونه..

إن المسافة من (نخل) إلى مَرْسى (بركاء) تصل إلى نحو 35 كيلومترا، وكان الراكب حمارا يحتاج -مع حساب استراحاته والتواء الطرق- إلى نحو 26 دقيقة ليقطع كيلومترا واحدا، أي إن الراكب حمارا من (نخل) إلى مرسى (بركاء) سيصل بعد نحو 16 ساعة، فإن كان راكبا للخيل مثل (سلام) اختصر ثُلُثَيِ الوقت؛ مما يمكنه أن يصل إلى مرسى (بركاء) في أقل من ست ساعات تقريبا..

- نحن رأيناه..

نطق بالجملة أحد البحارة، فالتفت إليه الجميع طمعا في معرفة ما عنده..

- جاء إلى مركبنا بعد الفجر أحد الغرباء على فرسه، وله الملامح التي ذكرتموها، وقد كان في جانبي ظهر فرسه جونِيَّتان متوسطتا الطول بهما قماش

ساسوني، وفي يده صرة نقود، وقال إنه على عجل من أمره، ويريد أن يسافر في أي مركب يكون أقرب سفرا.. فلمّا سألناه إلى أين أنت ذاهب قال إنه يريد (دُبي) للرجوع إلى والده المريض المحتاج إليه سريعا بعدما وصلته أنباء تشير إلى أنه مريض وغير قادر على دفع قيمة العلاج ولا النفقة على أبنائه.. فاعتذرنا له لأن مركبنا غير مهيأ للسفر، وأننا سنهيئه بعد يومين للسفر إلى بندر عباس وليس إلى (دبي)؛ لكننا نصحناه بأن يذهب إلى صاحب مركب آخر اسمه (جمعة)؛ لأننا نعلم أنه سيسافر إلى (شناص) صباح هذا اليوم، ويمكنه أن يركب معه إلى (شناص) ليكمل سفره بعد ذلك في مركب آخر من (شناص) إلى دبي حتى لا يتأخر عن لقاء والده..

- وهل ركب مع جمعة إلى (شناص)؟..

وجه والي (بركاء) السؤال إلى البحّار، فأجابه على الفور:

- نعم.. وقد أقلعوا بعد شروق الشمس..

- وكم يحتاج مركب (جمعة) من الوقت للوصول إلى (شناص)..

تقدم بالسؤال (زاهر) هذه المرة، فأجابه الرجل:

- يوم كامل على الأقل.. ولو أكملوا طريقهم إلى دبي دون توقف فإنهم سيصلونها في نحو يومين..

- شكرا لك جزيلا على كل هذه المعلومات..

بهذه المجاملة العَجْلى أنهى والي (نخل) الحوار بينهم وبين البحارة؛ وقد امتلأ قلبه كَدَرا وضِيقا..

لقد أدرك أن الفريسة أفلتت من (المصيدة)..

وربما إلى الأبد!..

هجوم..

اختفت كل خيوط الشفق الأحمر..
والتحفت الأرض باللحاف الأسود..
في وقت بلغت فيه السابعة والنصف..
وغرق حصن (الْمِصِنْعَة) في هدوء خانق..
وفجأة ظهر ذلك الفارس على مرأى بعض عساكر الحصن وقد توزعوا في أبراجه..
اتجه الفارس بأقصى سرعته حاملا بندقيته إلى بوابة الحصن وكأنه ينوي الهجوم عليها..
ونزل أحد العساكر إلى حارس البوابة لينبهه على الفارس المهاجم..
انتظر الاثنان حتى سمعا طرقات عنيفة متتالية أعقبها رجاء من الفارس أن تُفْتَح له البوابة..
فتح أحدهما بحذر النافذة الصغيرة المحفورة في البوابة الخشبية ليسأل الفارس عن سبب قدومه..
ناوله الفارس رسالة قال إنها رسالة عاجلة جدا مرسلة إلى رئيس عساكر حصن المصنعة، وتحمل موضوعا بالغ الخطورة..
وعلى الفور هرع رئيس العساكر من غرفته الخاصة بالحصن ليقابل الفارس..
لقد كان الفارس هو (زاهر)؛ لكنه كان بملابس مدنية..
وكانت الرسالة بخط والي (نخل) مذيلة باسمه وتوقيعه؛ بالإضافة إلى اسم والي (بركاء) أيضا وتوقيعه..

كان محتواها يقضي بأن يتعاون رئيس عساكر حصن المصنعة في القبض على سارق هارب من (نخل) إلى (شناص) بمركب أقلع من (بركاء)، وغاية التعاون أن يسلم رئيس عساكر الحصن (زاهر) حصانا مرتاحا مستعدا للسفر مقابل أن يستلم فرس (زاهر) اللاهث من طول السفر؛ على أن يزود (زاهر) أيضا بمؤونة جديدة للسفر..

كان الحصان الذي قَدِمَ عليه (زاهر) هو الحصان الذي أعطاه إياه والي (بركاء) بعد أن استلم منه فرسه المتعبة القادمة من (نخل)، وكانت عمليات الاستبدال هذه قد اقترحها والي (نخل) في كل منطقة ساحلية يصل إليها (زاهر) لكي يبلغ (شناص) في أقصر وقت ممكن كمحاولة أخيرة للقبض على (سلام) إن لم يكن قد انطلق به أي مركب من (شناص) إلى (دُبَي)..

كانت عمليات الاستبدال هذه جزءا من التعاون الأمني المتعارف عليه بين ولايات سلطنة عُمان الساحل وولايات إمامة عُمان الداخل، ولاسيما أن الأفراس والخيول التي تُسْتَبدل سَيُعادُ كُلٌّ منها في النهاية إلى ولايته التي أُخِذَ منها..

لقد أوصى والي (نخل) قائده (زاهر) بأن يبذل قصارى جهده في الإسراع بالأفراس التي يستبدلها، وألا ينام هذه الليلة إلا قليلا؛ لكي يصل إلى (شناص) في مدة لا تتجاوز 30 ساعة..

وأوصاه أيضا بأن يستبدل كل فرس يركبه في أقرب محطة؛ لئلا يستهلك فرسا واحدا في مسافة طويلة، فيتأخر في الإسراع بسبب الضنى الذي يلحق بالفرس..

ضيافة..

- شكرا لك على عنايتك بي..

وجه (سلام) شكره لصديقه الحميم (هلال) الذي أسرع يتلقاه منذ علم بوصوله (شناص) على مركب (جمعة) قادما من (بركاء)..

كان (هلال) أحد زملائه الذين اشترك معهم في مهنة الغوص وقد قضى فيها (سلام) اثني عشر عاما من زهرة شبابه دون فائدة تذكر..

- قل لي هل ما زلت تمارس الغوص مع (النوخذه بدر)؟..

- نعم أمارسه.. لكني انتقلت إلى (نوخذه) آخر غير المعلم (بدر)..

- ألم تفكر في عمل آخر ولو في خارج البلاد؟!..

- وأين أذهب؟.. إن الأعمال شحيحة.. وما دامت الحالة مستورة هنا مع أهلي فلماذا أكلف نفسي الغُربة..

صمت الاثنان قليلا إذ اشتغل (هلال) بتقريب الفُطُور إلى (سلام) قبل أن يواصل الحديث معه:

- لقد قلت لي إنك تودّ الذهاب إلى دُبَي.. فلماذا هذه العجلة؟.. امكث معنا أسبوعا على الأقل..

- أشكرك.. إني مرتبط بخدمة أحد التجار في (نخل)، وعلي أن أجلب له بضاعته من (دُبي) في أقصر وقت، ولو أني وجدتُ مركبا يذهب إليها من (بركاء) لذهبت؛ لكني لم أجد إلا مركبا إلى (شناص)، وأنت تعرف أن المرء قد يتأخر أياما حتى يجد مركبا إلى المكان الذي ينشده..

- وهل وجدت مركبا هنا سيذهب إلى (دبي) قريبا..

- نعم.. إنه مركب (إدريس)، وسيرحل غدا في المغرب إن شاء الله..

قالها (سلام) وهو يأخذ نفسا عميقا وهو يفكّر في الصعاب الكبيرة التي واجهها وتخطاها باحتراف..

إقلاع..

نشطت الحركة في مرسى (شناص) عصر هذا اليوم، واشتعل النشاط في طاقم من البحارة ظلوا مشغولين بتعبئة مركبهم بالبضائع والمُؤَن..

كان مركبهم راسيا على بعد عشرين مترا من الشاطئ؛ إذ لا يسمح قاع البحر باقترابه من الساحل أكثر من تلك المسافة..

لقد انقسم الطاقم إلى ثلاث فرق، فكان فريق منهم يجلب الأمتعة من الساحل إلى الشاطئ، ليقوم فريق ثان يركب بعض القوارب الصغيرة بحمل هذه الأمتعة إلى المركب؛ حيث ينتظرهم الفريق الثالث الذي يرفع الأمتعة إلى المركب..

ظلوا يعملون بجد حتى أعدوا كل العدة مع غروب الشمس، فصعدوا إلى المركب..

أبحر المركب يشق خيوط الظلام؛ على حين علت البسمة في وجوه جميع الركاب، وكان أكثرهم بسمة ذلك الشاب الرَّبْعَةُ الكثيف الشعر الذي كانت عيناه تعاود النظر بين الحين والآخر إلى الجونيتين اللتين حشاهما بالقماش الساسوني..

كان (سلام) قد قضى ليلتين في (شناص) وهو ينتظر بفارغ الصبر هذه اللحظة التي يفر فيها بجلده..

وقد تحققت له بالفعل..

مضى المركب في طريقه المرسوم له وسط بحر من العتمة دون أن يشعر الركاب بِسَيْرِه، ودون أن تهنأ أعينهم برؤية أي شيء يمكن أن يسليهم في هذه

الرحلة المظلمة..

تناول الجميع عشاءهم، وسرعان ما تسلل النوم إلى أجفان الركاب منهم؛ على حين بقي طاقم البحارة يتناوبون على قيادة المركب وحراسة الأمتعة ومرافق المركب الحساسة..

لم يدر الركاب الراقدون كم عدد الساعات التي قضوها في نومهم؛ لكنهم في الأخير سمعوا بعض أصوات البحارة توقظهم من سباتهم، وتطلب منهم النزول في محطة بلغها المركب..

كان من عادة المراكب في أسفارها أن تقدم للناس خدمة الشحن، فكلما نزلت في محطة أنزلت بعض البضائع التي تخص هذه المحطة من الأمتعة التي أوصى أصحابها في المحطة السابقة بشحنها إلى هذه المحطة التالية ودفعوا ثمن شحنهم دون أن يكونوا من ركاب السفينة..

كان الوقت قبيل الفجر، وقد أبلغ الربان الركاب بأنهم سيشحنون بضائع جديدة من هذه المحطة التي نزلوها، وأن عليهم النزول والإفطار في هذه المحطة حتى ينتهي الشحن..

نزل (سلام) مع جملة الركاب، ووطئت أرجلهم الساحل، ومضت أقدامهم المنهكة تجرهم إلى بعض مرافق المرسى..

وفجأة أصاب الذهول (سلام)..

وخفق قلبه بشدة..

فالمحطة التي نزلها لم تكن غريبة..

إنها محطة (بركاء)!..

- لقد كنتُ سعيدا بصحبتك في هذه الرحلة وإن كنا لم نلتق في المركب بسبب اختفائي في غرفة الربان!..

أتاه من الخلف صوت مميز يعرف صاحبه جيدا، وقد ربّت صاحب

الصوت على كتفه، فاستدار (سلام) وشهق وهو يحدق في وجه مُحَدِّثه؛ وهو يقول مذهولا:

- زاهر!..

وقبل أن يجيبه (زاهر) بالإيجاب شعر (سلام) بيديه وقدميه تُقَيّدان من قبل بعض البحارة وقد تحركوا خلف (زاهر) للإمساك بـ(سلام) سريعا قبل أي مبادرة منه، فقال له (زاهر):

- نسيت أن أبلغك بأنني اتفقت مع الربان على أن يغير مسار الرحلة دون علم الركاب لنضمن وصول الذَّهَب إلى (نخل) سليما، والحمد لله على نجاح المهمة..

انهار (سلام) وهو يستمع إلى (زاهر) الذي لم يُنْهِ كلماته حتى رأى العساكر يجرونه إلى مصيره الأخير..

المحاكمة..

في حصن (نخل) الشامخ على ربوة من صخر جعلته كأحلى قصور العصور التليدة- قعد والي (نخل) في مكتبه الطويل على كرسيه في شموخ، وهو يحقق مع (سلام) وعصابته؛ مع وجود بعض شهود العيان مثل (كامل) و(حمدان) والعساكر؛ وقد أحاطوا بجلسة المحاكمة في مشهد زاد الحصن هيبة وجلالا..

- لقد أسأتم إلى كثير من الناس عن عمد، وغلّفتم كثيرا من أعمالكم المزورة بالخداع الذي ظاهره الحقيقة وباطنه الكذب والزيف.. ونحن اليوم سنكشف ما فعلتموه بحسب ما توصلنا إليه بالأدلة الثابتة؛ ونطالبكم بالاعتراف بكل ما خفي لعلنا نخفف عقوبتكم بهذا الاعتراف الذي سيكون جزءا من أدلة براءة المتهمين الذين وَقَعُوا في شباك مخططاتكم..

استفتح الوالي الجلسة قبل أن يضيف موجها وجهه شطر (شهبار) و(صلاح) و(غريب):

- ما الذي دفعكم إلى الاشتراك مع (سلام) في تنفيذ مخططاته؟..

تلكأ الثلاثة في الإجابة؛ لكنهم رأوا الأسواط خلفهم في أيدي العساكر وهي تفوح برائحة العذاب، فقال (شهبار):

- إن (سلام) أشاع منذ وصوله إلى (نخل) أنه يمتلك لؤلؤة استخرجها من البحر تستطيع أن تضيء مسافة عدة أذرع، وقد طمعنا فيها، فبحثنا عنها في الأماكن التي يرتادها فلم نجد لها أثرا، فقررنا أن نخطفه لِيُقِرَّ بمكانها، فلما تربصنا به وخطفناه كشف لنا حقيقة أن اللؤلؤة لم تكن سوى مصباح يدوي أهداه إليه بحار إنجليزي، وأنه تعمد إشاعة حكاية اللؤلؤة المشعة لكي يلتقي لصوصا ينضم إليهم ويخطط

لأعمالهم ويمدهم بإمكانات حديثة لا يعرفونها.. لقد أغرانا بخططه الذكية لسرقة كثير من الأموال بالاستعانة بمصباحين يدويين، بالإضافة إلى أنه قال إنه سيعمل (قافرا) عند الوالي ليضلله هو وعساكره عن الاهتداء إلى ما نفعله، وقد طلب منا أن يكون زعيمنا، فلم نجد مانعا بعد أن عرفنا ذكاءه، وجرّبنا قدرته على المناورة، وتحقيق الثروة لنا، وإبعاد عساكر الوالي عنا..

- نحن لا نشك في ذكاء (سلام)، لكن ليته أعمل ذكاءه فيما يرضي الله.. ونحن نعترف بأنه استطاع أن يخدعنا حينا من الزمن؛ لكن شكوكنا بدأت تحوم حوله بعد أن اتهم (حمدان بن سالوم) بسرقة الشاتين، وقد حاولنا انتزاع اعتراف (حمدان) بالسرقة بالحبس الطويل، ومحاصرته بالأدلة، وإحراجه بالكلام، والتأثير في نفسيته؛ لكننا لم نفلح، وأدركنا أنه بريء، ونحن نسألكم اليوم لماذا لفقتم التهمة به؟..

قدّم الوالي سؤاله الثاني، فنظر (شهبار) إلى (غريب) نظرة تشير إليه بأن يفضي بما عنده، فتحدث (غريب):

- لقد قال لنا (سلام) بأنه قبل اثنتي عشرة سنة كان موجودا في (نخل)، وشَهِدَ قضية وقعت لـ(حمدان)؛ إذ اقتحم بيتا في (الغريض) وهو سكران، فاتُّهِمَ بمحاولة سرقته، وطلب مني (سلام) أن أراقب (حمدان) لأعرف الأوقات التي يترك فيها عريشه، فعلمت أنه يذهب إلى (وادي مِسْتَلّ) في الأسبوع مرتين؛ ليجلب العنب وبعض فواكه الصيف، وفي كل يومٍ يذهب يبيت هناك فلا يعود إلى (نخل) إلا في اليوم الذي يليه؛ ليبيع ما جلبه في سوق (نخل) في اليوم الثالث، فاخترنا لسرقة الشاتين الليلة التي يبيت فيها (حمدان) في (وادي مستل)..

- هذا يؤكد ما شككنا فيه بعد حادثة (حمدان) من أن (سلام) ليس بالحاذق في القفر، وإن كان يملك فيه مهارة لا بأس بها، وقد ازدادت شكوكنا بعد سرقة السوق إذ قادنا (سلام) إلى جبل (بان)، وكان ذكيا في اختيار هذا الجبل ليقنعنا بأن آثار اللصوص قد انتهت في منتصفه، فآثار اللصوص لا تبقى على الحجر الأصم فعلا إذا

مشوا عليه طويلا، وكان هو على علم بوجود الوكر الذي في الناحية الغربية فيه.. أليس كذلك.؟.

وجّه الوالي السؤال إلى عصابة (سلام)، فنظر (غريب) و(شهبار) في وجه (صلاح)، فهزّ هذا الأخير رأسه بالإيجاب وهو يقول:

- نعم.. إنه وكرُنا السابق نفسه الذي حملنا إليه (سلام) بعد أن أفقدناه وعيه ليعترف فيه بمكان اللؤلؤة، وقد أمرني (سلام) أن أضع فيه ملابس مزيفة وبعض الأواني والمواقد لنُدَلِّل على أنه وكر للعصابة التي سرقت السوق فلا يشك الشيخ الوالي وعساكره في أن (سلام) قد ساعدهم في التوصل إلى وكر (العصابة)..

- إن ما فعلته يا (صلاح) كان يمكن أن يرفع شكوكنا السابقة نحو (سلام) مرة أخرى لولا أنا كُنا قد سمعنا من العساكر ومن بعض الناس ما شاع عن حكاية لؤلؤة (سلام) التي تُطْلِق شعاعا في خط بعيد المدى، مما جعلني أربط بين شعاع اللؤلؤة وحادثة سرقة السوق.. لقد أمرتُ (زاهر) بأن يتحرى أمر هذه اللؤلؤة ممن شاهدها من أهل (العلاية)، فأخبرنا غيرُ واحدٍ منهم أنهم لم يروا اللؤلؤة نفسها، وإنما رأوا شعاعها فحسب، وأن (سلام) قد باعها ولا يعرفون لمن باعها، ثم إنني أرسلتُ رسالة إلى والي (بركاء) أطلب فيها منه أن يسأل أهل الخبرة بالغوص عن صفة الآلئ: أهي تشعُّ؟ فردَّ عليَّ برسالة تنكر إمكان أن تكون ثمة لؤلؤة تضيء، ثم كان الفضل لـ(زاهر) في تنبيهي على ما دار في حادثة السرقة من قدرة اللصوص على التحرك بين البوابات في سرعة عجيبة كما لو أنهم يتفاهمون بينهم في الظلام..

سكت الشيخ (محمد) وأشار إلى (زاهر) ليشرح ما تبقى، فقال هذا الأخير:

- نعم.. لقد استمعت إلى شهادة الحارسين اللذين أصيبا في حادثة سرقة السوق؛ إذ قالا إنهما لم يشاهدا سوى ثلاثة لصوص؛ لكن اللصوص كانوا يؤدون أدوارهم على مهارة عالية وبسرعة عجيبة، إذ كانوا يراقبون تحرّك الحارسين، ويتفاهمون في الظلام فيما بينهم؛ مما جعلني أعتقد أنهم سَحَرَة؛ لكنني حين عرضتُ الأمر على شيخنا

الوالي طلب أن نراجع -أنا وهو- جميع تفاصيل الحادثة بالدقة، ومحاولة تمثيلها في أذهاننا، فَخَلُصْنا إلى أنه يستحيل على ثلاثة لصوص أو حتى أكثر -وبعضُهم فوق السطح، وبعضهم تحته، وهم متوزعون على بوابات السوق المتباعدة- أن يستطيعوا أن يتفاهموا بينهم بالكلام الذي يمكن أن يسمعه الحارسان، وأن ينتقلوا فوق السطح وتحته إلى المواقع التي تتناسب وحركة الحارسين؛ دون أن يستخدموا إشارات بينهم، ولا تكون هذه الإشارات بالأيدي التي لا تظهر في الظلام، ثم ربطنا هذا بمعلوماتنا عن اللؤلؤة، فقلنا إن ما كان يملكه (سلام) شيء يضيء في الظلام لكنه حتما ليس لؤلؤة كما أشاع هو بين الناس، وأن هذا الشيء المضيء لا بد أن توجد منه أكثر من نسخة في أيدي اللصوص لكي يتمكنوا من تبادل الإشارات بينهم، ولأننا لا نعلم شيئا يضيء الظلام سوى السراج؛ فإننا استبعدنا السراج باعتباره آلة يصعب الاعتماد عليها لإطلاق إشارات بعيدة المدى مختلفة الحركات، لأنه لا يضيء إلا مسافة قصيرة قد لا تتجاوز باعا، ثم إن السراج يصعب إطفاؤه وإشعاله من جديد في حركة سريعة تتطلبها مهمة السرقة.. من هنا خلُصنا إلى أن (سلام) يمتلك آلة أخرى غير السراج لكننا نجهلها..

- ألأجل هذا أعلنتَ يا شيخنا عن الجائزة؟..

ألقى السؤال العسكري (حسن)، فأجابه الوالي:

- نعم.. لقد أردت أن أضع جائزة لمن يأتي بآلة تَفُوق السراج وتصدر ضوءا يصل إلى مسافة جيدة من الأذرع.. وقد تعمدت أن أفشي رغبتي في وجود آلة مضيئة أمام العساكر في حضرة (سلام) في جبل (بان) لأثير فضوله المادي، وأدفعه نحو تسليم آلته إلينا، وكنت أعلم أنه لن يسلمها بيده؛ بل سيرسل أحد أفراد عصابته ممن لا نعرف عنهم شيئا؛ ليستلم النقود التي ستنتفع بها العصابة، ولا يضر تسليم الآلة العصابة شيئا لكونها تمتلك نسخة أخرى من الآلة نفسها، ولا تخشى أن يستخدم العساكر هذه الآلة الجديدة في حراستهم وأعمالهم؛ لأن العصابة -بلا شك- تخطط

للهرب بعد أن ارتكبت سرقة الذهب التي ستغنيها عن أي سرقة بعدها.. لكني...

صمت الوالي قليلا وهو يُطرِق فِكْره، ويشبك أصابع يديه فوق المنضدة، ثم قال:

- لكني كنت أتساءل مع نفسي بعد أن استلمنا نسخة من المصباح اليدوي وسلمنا جائزته لـ(شهبار): هل يعقل أن يرتكب (سلام) -اللص العبقري- حماقةَ أنْ يُسَلِّم المصباح اليدوي للعساكر ليستلم 500 قرش دون أن يخطر بباله أن وراء هذه الجائزة كمينا من الوالي لتتبع من سيستلم الجائزة.. هل يعقل أن تُعْمِيَ 500 قرش رجلا كيّسا مثل (سلام)؛ أم إنه تعمد أن يقود العساكر إلى عريش العصابة في السيح ليقعوا في النهاية في قبضة العدالة في الوقت الذي خطط هو للهرب بعدما أخبرتُه أنا بأنه سيُبْتَعث إلى (صور)؟!..

نُكِسَ (سلام) على رأسه خَجِلا؛ على حين ارتفع حَنَقُ أفراد عصابته عليه، والتفت الجميع إلى (سلام)، لكنه لم ينبس ببنت شفه، فقال الوالي له في صرامة وقد أشار إلى العسكري خلف (سلام) بأن يرفع سوطه استعدادا:

- أخبرنا يا (سلام).. هل تعمدت أن تقودنا إلى معرفة مكان اختباء زملائك؟..

رفع (سلام) رأسه ببطء قبل أن ينكّسه من جديد وهو يضم شفتيه حسرة، ثم قال:

- نعم..

- ولماذا لم تحفظ عهدك لهم بأن تبقوا على يد واحدة؟.. أم إنك أردت أن تُعلِّم الناس أنْ لا وفاءَ بين اللصوص؛ لعل الناس يتعظون؟!..

انتظر الجميع حتى نطق (سلام) بالإجابة:

- نعم.. لا أحد من اللصوص يمكن أن يثق بصاحبه، فكل واحد يطمع في أن يحوز أكبر نصيب مما حصلوا عليه، وكل من شارك في الحرام لا يخشى في أن يغدر بأهل الحرام!.. لقد كانوا هم ثلاثة زملاء بينهم معرفة طويلة قبل أن أحشر نفسي وسطهم، وقد خشيت أن يغدروا بي بعد سرقة السوق فيرحلوا، فاحتفظت بنصف

الذهب، ثم إني خشيت أن يكرهوا طول انتظارهم لي بسبب ارتباطي بوظيفة القافر، فيفعلوا بي ما فعلوه حين اختطفوني أول مرة فأقر لهم بمكان الذهب الذي عندي على الرغم مني، فقررت أن أتخلص منهم، ووجدت الفرصة سانحة بعد أن أخبرني الشيخ الوالي أنه سيبعثني إلى (صور)، وكنت أرى أنَّ أَحْسَنَ مَن يخلصني من شرهم هم العساكر؛ إذ ليس لأحد من الناس مصلحة للقبض عليهم أو إيذائهم سوى العساكر، فتعمدتُ أن أغري (شهبار) و(صلاح) و(غريب) باستلام (خمسمائة القرش) ليشتروا لأنفسهم أحصنة وأسلحة، ويُعِدُّوا أنفسهم للهروب الذي طالما حلموا به.. لكنني لم أخبرهم بالمكان الأخير الذي سنهرب إليه بعد أن نقترب من (صُور)؛ لئلا يكشفوا خطتي لكم، فتعلموا أني كنت أخطط للهرب من طريق البحر بالمركب، ثم إني اتفقت مع زملائي الثلاثة ألا يخرجوا من العريش إلا بعد الشروق بساعة؛ لئلا يتمكنوا من اللحاق بي لو أنهم لم يقعوا في قبضة العساكر..

- وهل كنت تعتقد أن والي (صور) يطلبك صدقا؟..

- كنتُ أعلم أن والِيَنا لن يطلعني على رسالة الإمام ولا رسالة والي (صور)؛ لعلمه بأني لا أقرأ ولا أكتب، ولم يكن من الأدب أن أكذبه وأطالبه بأن يُظهر لي الرسالتين، وكنت أشك فيما يقوله وأحسبه خدعة؛ لكني وجدتها فرصة سانحة للهرب، فبدأت أخطط واضعا أمام نصب عيني كل الاحتمالات الواردة، وقد تيقنت أن عساكر الوالي يراقبونني؛ لأني كنت حين أذهب إلى عريش السيح أتعمد أن أعود من نفس الطريق، فكنت أرى في طريق عودتي آثار أحذية العساكر التي أحفظ نقشها، فأعلم أنهم كانوا يتعقبونني من بعد، وكنت أتعمد ألا ألتفت يمينا ولا شمالا لئلا يعلموا أني أعرفهم..

صمت الجميع لحظات منتظرين ما سيضيفه الوالي، فقال هذا الأخير وهو يحرّك سبابته:

- منذ أن تأكدنا من حقيقة علاقتك بـ(شهبار) بعد زيارتك له ولسائر اللصوص

في العريش، قررتُ إطلاق سراح (حمدان) بعد أن تخرج من (نخل) إلى (صور)، وبدأت أعيد النظر في قدرتك على القفر، فراجعت ما فعلته لتتجاوز اختبار الوظيفة، وتذكرت أنك كنت تتعمد أن تثير غضبي لتصرفني إلى شيء لا تريدني أن أنتبه إليه لئلا أكشف عجزك عن هذه الوظيفة؛ لكنني فشلت في معرفة هذا الشيء بعد أن اقتنعت بحذقك في القفر حين استطعت أن تعرف أن أقْناء الموز الأربعة في غرفتي وليست في البُخّار، وهو ما لم يكن يعرفه سواي، فقد تعمدتُ أن أنقلهما من البخار دون علم أي أحد من العساكر، حتى العسكري (خميس) الذي نفذ معي عملية قطع الأقْناء لم يكن يعلم أني نقلتها إلى غرفتي، وهذا جعلني أتعجب في ذلك الوقت ولا أشك في مهارتك، فقبلت توظيفك.. فقل لي ماذا صنعت لتقنعني؟!..

- الحقيقة أني عندما عُدْتُ من (الصاروج) بصحبة (خميس) طلبت من (خميس) أن يتوقف قبل ضفة الوادي، وتعمدتُ أن أصطنع أني أقيس عمق آثار حوافر فرس الوالي وفرس من كان يصحبه ليلة السرقة، والحقيقة أن الأرض لم تكن طينية لينة بما فيه الكفاية حتى أجد فارقا بين عمق حوافر الفرسينِ قبل ذهابهما إلى (الصاروج) وعمقها بعد عودتهما من (الصاروج) حامِلَيْن الأقْناء الأربعة، وطلبت من (خميس) ألا يأتي إلى الضفة؛ بل نتخذ طريقا آخر من ضفة ثانية، وذلك لكي لا يدقق في الفارق بين حوافر الذهاب وحوافر الإياب..

- إذن فقد تعمدتَ أن تثير غضبي لتصرفني عن أن أسأل (خميس) إن كان وقف على عمق الحوافر أو لم يقف؟..

- نعم صحيح.. ذلك لأني في حديثي مع سيادتكم بعد عودتنا إلى الحصن لم أخبرك بأني طلبت من (خميس) أن يبتعد عن ضفة الوالي لئلا أثير شكوكك في سبب إقصاء (خميس) عن رؤية ما أفعله في الضفة، ولم تحاول سيادتك التثبت من الفرق بين عمق الحوافر قبل حمل الفرسين للأقْناء وعمقها بعد حملها؛ لأن ذهنك كان مشوشا بالغضب الذي خلقتُه لك.

- وكيف توصّلت إلى معرفة أن الأقْناء في غرفتي ولَشنَ في البخّار؟!..

- عندما دخلتُ الحصن أنا و(خميس) تعمدتُ أن أكون خلفه فأهمس في أذن حارس البوابة (سعيد) لأسأله عن المكان الذي خبّأ فيه الوالي الأقْناء فأجابني بأنها في البخّار دون أن يرى (خميس) ما دار بيننا؛ وعندما قعدتُ أنا وخميس في غرفة الاستقبال ظللتُ أفكر فيما قاله (سعيد)، فقلت إن الوالي بدهائه لا يمكن أن يجعل عساكره يعرفون مكان الأقْناء، فهو لا بد أن يضمن سرية الاختبار حتى على عساكره، عندئذ استغللتُ مدة انتظاري أنا و(خميس) في غرفة الاستقبال في الساعة التي كان فيها سيادة الوالي مشغولا بمقابلة الشَّوَاوِيْ (نصير) الذي سُرِقَتْ شاتاه، واستأذنت من خميس لأقضي بعض حاجاتي من السوق إلى أن ينتهي الوالي من المقابلة، وقبل أن أخرج من الحصن مررت بحارس البوابة (سعيد) لأطلب منه التأكد من وجود الأقْناء في كل مرافق الحصن وغرفاته، فلما عدت أخبرني بأن الأقْناء ليست في البخار وأنه بحث عنها في كل الغرف التي يستطيع أن يدخلها عدا المكتب وغرفة الوالي، فأدركت أن الأقْناء في غرفة الوالي..

نظر الوالي بغضب إلى العسكري (سعيد) بسبب تواطئه مع (سلام)، فأسرع (سعيد) يدافع عن نفسه:

- عفوا شيخي الوالي.. دعني أصارحك ببعض الأمور لئلا تفهمها خطأً.. لقد زار (سلام) الحصن عدة مرات قبل أن يكون قافرا، وتعرّف العساكر وعرف أني المسؤول الأول عن حراسة البوابة، ثم بحث عن حالتي المادية وعلم أني مدين للتاجر (خلفان) بعشرين قرشا، وأقنعني -بسبب اتحاد بيننا في القبيلة، وصداقة قديمة بين والدي رحمه الله ووالده، وعلاقة حميمة بين زوجتي وأخته- بأن أقبل مساعدته لي في دفع ديني، وحاولت أن أصرفه عن هذا الأمر؛ لكنه وضح لي أنه ليس في حاجة إلى المال؛ إذ دَفَعَ دين والده، وأصلح حال بيتهم بعدما باع اللؤلؤة، وبقي له مال يسير، وهو لا يفكر في

الزواج، فقبلت منه المال لأن ظاهره كان صدقة كما قال؛ لكنه بعد أيام زارني مرة أخرى وقال إن له بصيرة بالقفر؛ وإنه يود أن يعمل قافرا مع الوالي؛ لكنه يخشى من الوالي باعتباره رجلا صارما وذكيا جدا، وأنه قد يضع له اختبارات طويلة وشروطا مفصلة، وقال لي في النهاية إن كل ما يريده مني هو أن أجيبه على بعض الأسئلة التي قد تعينه على الوظيفة، وأن هذه الوظيفة ستخدمه في تحسين وضعه بعدما قل مالُه بعد أن باع اللؤلؤة، فرحمت حاله، ووافقت على الإجابة على الأسئلة التي قال إنه سيسألني إياها إذا اختبره الوالي؛ إذ سيعتمد في تجاوزه اختبار الوالي على مهارته في القفر، ويبقى عَلَيَّ أن أجيب على الأسئلة فقط..

- مع هذا كان ينبغي لك أن تشاورني في هذا الأمر قبل أن توافق له على مطلبه..

ردَّ الوالي على (سعيد) ولا تزال عيناه تبرقان بالغضب، مما حدا بـ(سعيد) أن ينكس رأسه قائلا:

- أعترف بخطئي شيخي وأقدم اعتذاري..

عاد الوالي يصرف وجهه إلى (سلام) قائلا:

- لقد كنت يا (سلام) تستغل راتبك الكبير باعتبارك قافرا لتصرفه في خدمة أغراضك، لقد دفعت نقودا لجارك لتعلم أخاك ركوب الخيل، ثم سلمت أخاك نقودا ليحملها إلى صاحبك المزعوم في (الواسط)، ولا شك في أن النقود التي أعطيتها لـ(سعيد) قبل وظيفتك كانت مما جمعه (شهبار) و(صلاح) و(غريب) من المال الحرام..

نطق الوالي بعبارته وهو ينظر إلى اللصوص الثلاثة، فهزوا رؤوسهم في أسى كناية عن صحة استنتاج الوالي الذي أكمل:

- لقد كنتَ فطنا جدا وداهية في كل ما فعلت؛ لكن خطأك في سرقة فرس جارك هو الخطأ القاتل الذي ساقه الله إليّ لأكشف مكانك بعد أن فقدنا الأمل في

القبض عليك.. لقد كنت محتارا: هل أنت مختبئ في مكان ما لا نعرفه، وتنتظر هدوء الأوضاع لتهرب؟ أم إنك بدأت تمشي برجليك فوق إحدى الجبال الكثيرة المحيطة بالبلد؟ لكن لما قال (كامل) إن فرس جاركم سُرِقَتْ أدركتُ أنك سارقُها، فقد استأجرتها منه ثلاثة أيام لِتُرَوِّضها فتأنس الفرس باحتفائك بها. ثم إني جعلتُ نفسي في مكانك وقلت إني لو كان عندي فرس وأردت النجاة من الوالي وجميع الولاة- لَهَرَبْت إلى بلد غير عُمان، ولكي أهرب فلا بد أن أركب البحر من أقرب ساحل، وليس ثمة ساحل أقرب إلى (نخل) من (بركاء)؛ ولكي لا يقبض عليّ عساكر الوالي بخيولهم وهم يَجْرُون خلفي فلا بد أن أتقدمهم بالليل على حين ينطلقون هم بعدي عقب الفجر، ولكي أضللهم فلا بد أن أستعين بمن يقوم بالمهمة بدلا مني، فيوهمهم بأني منطلق في الفجر، ولا أحد يقوم بالمهمة أحسن من أخي الذي يشبهني ويصدّقني فيما أقوله..

بعد كل هذه الاعترافات لم يكن من الوالي إلا أن أمر بسجن (سلام) وعصابته، وأنهى الجلسة، فانصرف الشهود، وعاد العساكر إلى الوالي ليهنئوا أنفسهم وواليَهم على النجاح في أعقد عملية رأوها في حياتهم، وأمر الوالي بإحضار الفواكه والقهوة والحلوى ليحتفل جميع العساكر بهذا النصر في مكتبه..

قال العسكري (سليمان) للوالي متعجبا وهو يبتسم في أثناء تناول العساكر الفواكه:

- كيف استطعت شيخَنا في اللحظة التي سمعت فيها (كامل) يقول إن فرس جاره سُرِقت- أن تستنتج المكان الذي اختفى فيه (سلام)؟!..

سلب الضحك قلوب العساكر؛ على حين أضاف (زاهر):

- الحقيقة أننا منبهرون على الدوام من ذكاء شيخنا وسرعة بديهته، وقد تعجبت أكثر حين ذهبتُ معه سويا إلى مرسى (بركاء)؛ لنسأل البحارة إن كانوا رأوا (سلام)، لقد سأل شيخُنا البحارة: هل رأيت رجلا أبيض البشرة فيه أُدْمَةٌ على فرس يحمل

أكياسا فيها قماش ساسوني؟.. ولا أدري لماذا اختار شيخُنا القماش الساسوني ولم يكن قد رآه لدى (سلام)، وقد أجابنا البحارة بأنهم رأوا (سلام) وهو يحمل قماشا ساسونيا بالفعل؟!..

ازداد تعجب الجميع من فطنة الوالي، فابتسم هو وقال:

- لقد قدَّرْت أن (سلام) سيهرب إلى بلد غير عُمان، وقلت إنه سيضطر أن يسوّغ للبحارة سبب عجلته في السفر، فافترضت أنه سيقول لهم إنه يرغب في لقاء امرئ عزيز عليه لظرف اضطراري، وما دام يرغب في السفر فلا بد أن يحمل معه بعض الهدايا لعزيزه، وليس ثمة شيء خفيف على الخيل عزيز في الثمن أفضل من القماش الساسوني، ولا سيما أن القماش يتيح لـ(سلام) أن يطويه حول قطع الذهب التي سرقها لكي يستر بضاعته الحقيقية عن البحارة.. ومن عادة البحارة أنهم لا يُدَقِّقون فيما يشحنه الناس كثيرا؛ إذ كلُّ همهم أن يضعوا البضائع في مخزن المركب ويأخذوا ضريبة الشحن..

- لكن.. ألم يشعر البحارة وهم يحملون جونيتَيِ القماش الساسوني أنهما أثقل مما ينبغي أن يكون عليه القماش، فيشكوا أن بهما شيئا آخر غير القماش..

شارك بهذا السؤال (سعيد) ليخفف حنق الوالي عليه، وانتظر هنيهة قبل أن يجيبه الوالي بقوله:

- إن (سلام) لا يعجزه مثل هذا، فمن المنطقي أنه سيفطن إلى هذه الملحوظة ويعي أن في الجونيتين هدايا خاصة لمن يرغب لقاءهم في (دبي)، ولا شك في أنه لن يزعم في (شناص) أنه يرغب في السفر إلى والده المريض في (دُبَي) كما فعل في (بركاء)؛ لأن أهل (شناص) يعلمون أن والده مُتَوَفًّى..

تدخل (حسن) ليساهم في المشاركة في الحديث من جديد:

- الطريف أنني سألت عساكر والي (بركاء) حين التقيناهم في الواسط بعد مطاردة (كامل) قائلا: كيف لم تصادفوا (سلام) في الطريق في الليلة التي

خرج فيها إلى (بركاء)، وهي الليلة التي خرجتم فيها أنتم لتحاولوا الوصول إلى (الواسط) قبل الفجر؟!.. فأجابوا بأن التعليمات التي جاءتنا من والي (بركاء) تأمرنا بالقبض على رجل يركب فرسا وخلفه عساكر يطاردونه، ونحن لا نعرف صورة (سلام) ولم نَرَه من قبل، فلمّا التقيناه وهو يحمل القماش قرب (بركاء) ولم نر خلفه عساكر يطاردونه- لم يتبادر إلى ذهننا أنه (سلام)، فتركناه لحاله؛ إذ إننا كنّا نعلم أن (سلام) يفترض أن يصل إلى (الواسط) بعد الشروق..

ضحك الجميع مرة أخرى، فسأل العسكري (سليمان) زميله (زاهر) قائلا:

- أخبرنا كيف استطعت أن تصل إلى (شناص) قبل أن يغادرها (سلام) إلى (دبي)، وكيف أوهمته أنه يركب مركبا إلى (دبي) على حين أنه يركب مركبا إلى (بركاء)..

- من حسن الحظ أن المراكب في كل السواحل لا تسافر كل يوم؛ لأن بعضها قد يقصد بلدا بعيدة فيتأخر أياما قبل أن يعود إلى محطته الأخيرة، وقد حالف (سلام) الحظ حين وجد مركبا يود أن يذهب إلى (شناص) عقب الشروق فركبه ليتخلص من أي احتمال لانكشاف أمره وتعقب والي (نخل) له، ووصل إلى (شناص) باكراً أي بعد يوم من إبحارهم من بركاء؛ لكن الحظ لم يحالفه في (شناص) إذ قيل له إن المركب الذي يود أن يذهب إلى (دبي) سيتأخر إلى مغرب الغد؛ لأنه قادم من (كيرلاّ) ويحتاج إلى إعداده لرحلة (دُبَي)؛ مما يعني أن على (سلام) أن يمكث في (شناص) يوماً ونصفاً قبل أن يقلع المركب..

تناول (زاهر) قطعة من الحلوى، فابتلعها قبل أن يكمل:

- أما أنا فقد انطلقت من (بركاء) على حصان لوالي (بركاء) في أصيل يوم الخميس نفسه الذي غادر فيه (سلام) (بركاء)، واستطعت أن أصل إلى (شناص) بعد يوم وربع، وكنت حينئذ بملابسي المدنية، وكان الوقتُ أولَ وقتِ مبيت الناس، واضطررت إلى أن أوقظ رئيس عساكر حصن شناص من نومه

فورا، وأخبرته أن يتحرى وجود (سلام) وأن يسأل إن كان قد اتفق (سلام) مع أحد الربابنة على السفر إلى (دُبي) أو غيرها، واستقصى رئيس العساكر الأمر فأخبرني أن (سلام) موجود، وأن المركب التي سيركبها إلى (دبي) ستقلع بعد 20 ساعة، وأن صاحب المركب يدعى (إدريس)، فاضطررت بمساعدة رئيس العساكر أن نقنع (إدريس) أن يذهب إلى (بركاء) أولا لكي يصل الذهب المسروق سليما إلى (نخل) من طريق (بركاء) فلا يتعرض للسرقة بسبب انتشار القطاع واللصوص في المسافة البرية بين (شناص) و(نخل)، وأعطينا (إدريس) مالا مقابل هذه الخدمة ولتعويض الركاب عن التأخير؛ على أن يكتم أمر (سلام) عن الركاب وعن طاقم البحارة، وأن يكتم هو والبحارة أمر ذهاب المركب إلى (بركاء) عن الركاب؛ حتى نصل إلى (بركاء)، وقَبِل (إدريس) بعد أن اقتنع بإمكان أن يبيع بعض ما شحنه في (بركاء)، وأن يشحن من بركاء بضاعة لـ(دُبَي)..

قضم (زاهر) بعض الخوخ، ثم واصل مغامرته:

- انطلق المركب بنا ليلا ولا أحد من الركاب يدري أين يتجه بنا المركب؛ لأنهم كانوا مرهقين، وكان الوقت متأخرا، فناموا جميعا عدا الربان والبحارة الذين كانوا على علم بأمر (سلام)، وكنت مختبئا طوال الوقت في غرفة الربّان حتى وصلنا إلى (بركاء)، وألقيت القبض على (سلام) بمساعدة البحارة الذين تلقوا أمر الإلقاء عليه من الربان دون أن يعرفوا طوال الرحلة أن (سلام) لص يحمل ذهبا.. وكانت تلك الرحلة نهاية صراع العقول.. النهاية الأخيرة..

إصداراتنا

م	الكتاب	نوعه	المؤلف
1	سرديات عمانية	نقد	محمد بن سيف الرحبي
2	على حواف الشعر	نصوص	محمد بن سيف الرحبي
3	خطى وأمكنة	رحلات	عبدالرزاق الربيعي
4	رحلة أبوزيد العماني (ط2)	رواية	محمد بن سيف الرحبي
5	حقول الكلام	مقالات	مسعود الحمداني
6	هذا الذئب يعرفني	نصوص	خالد بن علي المعمري
7	رحيق النار	نصوص	زهران القاسمي
8	الطبيعة في الرواية العمانية	دراسات	منى بنت حبراس السليمية
9	إيضاح الطريقة للفنون العريقة فن المسبع	شعر	خميس بن جمعه المويتي
10	إيضاح الطريقة للفنون العريقة التغرود	شعر	خميس بن جمعه المويتي
11	قديس يحلق بعيدا	شعر مترجم	الشاعر الكوري: تشو أوهيون ترجمة/ أشرف أبو اليزيد
12	مظلة الحب والضحك	نصوص	بشرى خلفان
13	الديك	رواية	سالم الجابري
14	رفرفة (ط 2)	قصص	بشرى خلفان
15	حكايات النوارس	قصص	محمد بن سيف الرحبي
16	حدود المشاوير	شعرشعبي	محمد الراسبي

إصداراتنا بالتعاون مع الجمعية العمانية للكتاب والأدباء

1	لعيني ديالى	نصوص	محمد بن حبيب الرجبي
2	الخيمة ومفاتيح الحظ	مسرح	عزة القصابية
3	لآلىء عربية	مقالات	ناصر بن حمود الحسني
4	بين قدرين	رواية	رأفت ساره
5	تحت المطر	مقالات	خالد بن علي المعمري
6	المشهد القصصي في الأردن	دراسات ونصوص	مجموعة كتاب أردنيين

إصداراتنا بالتعاون مع البرنامج الوطني لدعم الكتاب بالنادي الثقافي

1	النباتات البرية في سلطنة عمان	علوم	يحيى بن سعيد القطيسي
2	ابن عربي عندما يكون الحب حائرا	دراسات	عثمان بن موسى السعدي
3	نظرية قدامة	دراسات	قاسم بن سالم آل ثاني

إصداراتنا بالتعاون مع الجمعية العمانية للمسرح

1	الآخر في المسرح العماني	دراسة	د. كاملة بنت الوليد الهنائية د. سعيد بن محمد السيابي

طبع بمؤسسة عمان للصحافة والنشر والإعلان



القافر

"في سلسلتنا "حكايات من التراث العماني" نجتهد كل عدد في تحوير حكاية شعبية إلى قصة ذات صبغة فنية تتضمن مشاهد مشوقة، تروي لجيلنا الحاضر الحياة التي عاشها أجدادنا وآباؤنا، فتقرب إليهم صورة ذلك الزمان على خصوصية أدواته، وسمات شخوصه، وظروف بيئاته.

وفي هذا العدد "القافر" تفاجئنا حبكة القصة بصراعات يخوضها والٍ في جبهات مختلفة ضد أناس خارجين على الحدود والأنظمة، وما يلبث الوالي أن يسعد بوجود قافر فيستعين به لتتبع آثار الجرائم والسرقات؛ لكن هذا القافر يفتح على الوالي بابا من الصراع أكبر من أن تتصوره نباهته."

المؤلف





ISBN 978-99969-55-24-2



بيت الغشام
للنشر والترجمة